ألعاب وعصافير

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail **unecriv@net.sy**
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu-dam.org

الإخراج الفني : وفاء الساطي

تصميم الغلاف : عبير الزعبي

هيسم جادو أبو سعيد

ألعاب وعصافير

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق

سلسلة القصص (11)
2011

الإهداء:

إلى أخي محمد

ألعاب...

أحجار لا تشبه أسماءها . . .

- لكن... ألا يكون الفيل كبيييراً؟!

وفتح ذراعيه ليعبّر عن حجم الفيل العملاق...

- نعم يا حبيبي... الفيل الحقيقي يكون كبيراً، أما هنا فهو ليس فيلاً حقيقياً...

ونظر الطفل إلى الحجر الصغير الهزيل دون أن يقنعه ما قال والده...

- وهذا... ما هذا؟!

ولمس بإصبعه الصغيرة حجراً على زاوية الرقعة...

- إنها القلعة...

ولم يعلّق الصغير على كلمة والده، فقد شعر أن ردّه حول القلعة سيكون مطابقاً لرده غير المقنع حول الفيل،

وتذكر قلعة رآها على شاشة التلفاز... كان الحجر الواحد في جدارها أضخم من الرجل الواقف إلى جانبه بمرات، وها هو هنا يكاد يوقعها أرضاً لأنه لمسها برأس إصبعه! وشعر بالحيرة... أي القلعتين عليه أن يصدق؟!

وانتقل بصره ليقع على حجر طويل يتربع وسط الأحجار الصغيرة...

- وما هذا يا بابا؟!

بدا العمق واضحاً في صوت الأب الذي أجاب:

- إنه الملك...

ثم أشار الأب إلى حجر أقصر قرب الملك:

- وهذا وزيره...

قلب الطفل شفتيه امتعاضاً... لم يعجبه أن يشاركه اللعب ملك ووزير، وهو الذي يرى والده أمام شاشة التلفاز يهزأ بالملوك الشاجبين وبالوزراء المجتمعين للإدانة، دون أن يعلم معنى الشجب والإدانة... وتذكر الغضب البادي على وجه أبيه وقبضته المتوترة...

ومد يده نحو الحجر الذي لفت نظره منذ البداية وشعر أنه الأجمل، لكنه تراجع، فقد أراد أن يؤجل سؤاله عنه إلى النهاية، فحرف مسار الإصبع الصغير...

- ومن هؤلاء؟!

- هؤلاء هم الجنود...

لا يمكن أن يكون هؤلاء الأقزام جنوداً! فالجنود عمالقة على رؤوسهم خُوَذٌ وبأيديهم بنادق وقنابل... أنا أعرفهم جيداً وأخافهم كثيراً...

كان يعلم ببراءة أن هذه اللعبة هي محاولة جديدة من أبيه لدفعه نحو النسيان... نسيان تلك الجريمة التي جعلته يخشى الخروج إلى الشارع، ويرفض الذهاب إلى المدرسة، ويجفل لرؤية أي شيء أحمر...

وشعر بالملل من هذه اللعبة قبل أن يبدأها، فكل ما فيها يبدو غير مقنع له وغير مخيف على غير عادة الأشياء الحقيقية... لكنه وأخيراً توجه بالسؤال حول القطعة التي وجدها أجمل القطع... كان يدرك أن لها رأس حصان، لكنه مع هذا سأل والده:

- وما هذا؟!

- هذا هو الحصان...

وأفرحه أنه اكتشف شيئاً من أسرار هذه الأحجار دون مساعدة، لكنه حزن لهذا الحصان الذي لا سيقان له ولا صهوة ولا صهيل...

- والآن...

قال الأب وابتسامة رقيقة على وجهه مقاطعاً تأمُّل حسام للحصان...

- سأعلّمك كيف تقوم بتحريك هذه الأحجار على الرقعة... ستكون الأحجار البيض لي والسود لك...

وخطر لحسام سؤال:

- ولكن لماذا تكون هذه بيضاء وهذه سوداء؟!

- لأن اللعبة تمثّل قوتين متحاربتين... وهكذا ستهجم الأحجار البيض على السود والأحجار السود على البيض...

وتململ الطفل على كرسيه...

- مستحيل!..

وسأل الأبُ بدهشة:

- لماذا؟!

لم يعرف كيف يمكن أن يشرح، لكنه يرى في كل يوم الأطفال العزّل إلا من حقائبهم المدرسية وأحجار صغيرة في حجم قبضاتهم يقاومون جنوداً مدرعين بالحديد والسلاح تدعمهم دبابات وسيارات مصفحة! فلماذا لا يكون لهؤلاء من القوة مثل ما لهؤلاء كما يحصل على هذه الرقعة الغريبة؟!

وفوجئ حسام بالمزيد من الغرابة في حركة الأحجار المصطفّة على الرقعة! فالجنود يتقدمون واحداً واحداً وخطوة خطوة، بل ويتركون لخصمهم فرصة التقدم للدفاع عن نفسه أو للهجوم! إنهم لا يختبئون ولا يناورون ولا يهجمون جماعات على المقاومين الهاربين من الرصاص والقنابل والدخان المسيل للدموع، ولا يقبض بعضهم على الآخر ليوسعه ضرباً ويزجه في معتقل! وهذا الفيل لا يمكن أن يتحرك بهذه البساطة دون ضجة ودون وقع أقدام تهز الأرض فضلاً عن هذه الرقعة الصغيرة! صار متأكداً الآن من أن هذا الفيل هو الفيل المزيف! وكاد يضحك لولا خجله من والده الذي كان يبدي اهتماماً شديداً بتعليمه هذه اللعبة... فلم يتوقع لحظة أن القلعة يمكن أن تتحرك وتذرع الرقعة جيئة وذهاباً دون أن تنهار!!

وجاء دور الحصان، وسمع والده يمهّد لحركة الحصان بقوله:

- الحصان قوي وقادر على القفز، لهذا لا يقف أي حجرٍ عثرةً في طريقه، فيستطيع تخطيه بقفزة واحدة...

وشعر حسام بالسعادة... فها هو حجر يمكن أن يقفز فوق هذه الرقعة ويتجاوزها! لكن حركة الحصان بيد والده أحبطته...

- واحد... اثنان... ثلاثة...

ووضع الحصان في مربع جديد...

لا يمكن... أهذا كل ما استطاعت تحقيقه قوة الحصان وقفزته؟! كان يتوقع من الحصان أن يطير في أرجاء الغرفة، بل أن يمر عبر النافذة إلى الفضاء الرحب حيث لا يحتاج إلى شمعة في وضح النهار ليرى ما في الغرفة بعد أن أجبر الحصارُ الناس على إغلاق النوافذ والستائر، وبعد أن قطع المحتلّون التيار الكهربائي عن المدينة...

وراقب الوزيرَ وهو يصول ويجول بين الأحجار التي تجمعت كلها لتجعل لها هدفاً واحداً هو حماية الملك، وتذكر ثانية ما يقوله والده عن بلاده التي تخلى عنها كل من ينبغي أن يقف إلى جانبها لحمايتها...

- والآن سأقتل هذا الجندي بهذا الفيل...

وهمّ الوالد بإزاحة الجندي عن الرقعة فأشاح الطفل بوجهه هلعاً عنها... هو لا يريد أن يرى دماء من جديد، ولا يريد أن يرى مزيداً من القتل، فقد رأى منه الكثير! وتذكر زملاءه الذين سقطوا جرحى وقتلى وهم في طريقهم إلى مدارسهم أو وهم لاهون بلعبة مسالمة... وترقرقت دموع في عينيه وهو يتذكر أخته التي... ومن جديد عادت اللعبة بذاكرته إلى ما جاءت لتنسيه إياه...

- ما بك يا حبيبي؟! دورك الآن...

توقع أن يرى المربعات البيض والسود وقد خُضّبت باللون الأحمر، لكنه فوجئ بالرقعة كما كانت، لكن خالية من الجندي الذي قُتِل... لماذا ينبغي أن نَقْتُل ونُقْتَل حتى في اللعبة؟!!

دفع اللعبة بيده الصغيرة لتتقلب أحجارها، وقد انهمر شلال من دمع على خديه صارخاً في وجه أبيه:

- لا أريد هذه اللعبة... أنا أكرهها...

ودخل غرفة مجاورة ليُحكم إغلاق بابها خلفه...

* *

الجنود يتقدمون بمدرعاتهم وأسلحتهم ليدمّروا البيوت ويحرقوا الزرع... وقف العديد من الأطفال والشبان في وجه الزحف المدجّج... حسام كان بينهم... واثقاً كما كانوا جميعاً واثقين من أنهم يفتحون صدورهم للموت... لكنهم وقفوا بثبات... لا يزحزحهم خوف ولا يُطأطئ قاماتهم ذل...

ولمح حسام بين الوجوه المتجهمة ذاك الوجه الذي لا يمكن أن ينساه...

كـــان صـــباحاً مدرســـياً بـــارداً... الجـــنود نبـــتوا كالطحالب في كل طريق وعند كل زاوية... الأطفال حملوا حقائبهم نحو مدارسهم التي صارت محكومة بمزاج المعارك والمواجهات! كان حسام يمسك يد أخته الصغرى ويعبر بها شارعاً وقف في أوله الأطفال خوفاً من تهديد جندي رفع سلاحه في وجوههم ليأمرهم بالعودة من حيث أتوا... تردد الأطفال... نظروا في وجوه بعضهم بحزن... تقهقروا خطوة، ثم حاولوا التقدم خطوة... لكن ذاك الجندي أطلق باتجاههم رصاصة تجاوزتهم كلهم قاصدة الصدر الصغير لأخته...

صورة ذاك الجندي حُفِرت في روحه حين شعر باليد الناعمة التي كان يضغطها بقوة تشده نحو الأسفل، ثم لمح أخته صريعة وقد خضبتها دماؤها... صرخ... بكى... تجمع حول الطفلة أطفال كُثُر ما لبثوا أن فروا حين تكاثف الرصاص في الهواء حولهم!! شبان قريبون تكفلوا بحمل الطفلة إلى منزلها ليعرف حسام أنه لن يراها بعد ذاك اليوم...

وراح ذاك الوجه يتطاول ويتمدد كأمواج عاتية حتى غمر كل الوجوه السوداء من حوله، فتحول الجنود جميعاً إلى نسخ متطابقة لجندي واحد لا يمكن لحسام أن ينساه وقد حُفِرت صورته في روحه...

أغمض حسام عينيه يستحضر قوة لا يمكن أن تتوافر إلا لطفل يحلم، ثم فتحهما...

الجنود يتقدمون وهو يمسك بيد أخته الصغرى ويضغط مسنداً ظهره إلى قلعة أحجارها عملاقة... تلفّت باحثاً عن ملجأ يقي به أخته فبزغ أمامه من حيث لم يدرِ فيل عملاق مدّ خرطومه نحوه فجلس مع أخته ليرفعهما الخرطوم إلى أعلى القلعة حيث لا يمكن أن يطال الصغيرة رصاص... اطمأن حسام إلى أن أخته ليست خائفة، بل لمح على وجهها ابتسامة واسعة وهي تلوّح له مشجعة... وفوجئ ثانية بحصانٍ أدهم يصهل قربه في دعوة لامتطائه! وانتبه عندها إلى أن كل أحجار الشطرنج قد جاءت لمساعدته في إنقاذ أخته وصد الغزاة، ولم يتخلف منها إلا الملوك والوزراء!

رصاص الجنود يرتطم بالقلعة ويرتد إلى نحورهم... الفيل يتقدم نحوهم ليتقهقروا... والحصان يحمل حساماً فوق صهوته ويحلّق فوقهم ليلطم خُوَذهم بحوافره فيرديهم أرضاً... الجنود يتساقطون ويُهزمون، والفيل يهزّ الأرض مع كل خطوة جبارة يخطوها، والقلعة تتطاول وتعلو، والحصان يحلّق ويصهل، وحسام مع كل صولة يرى عينَي أخته المفعمتين بالفرح تقتربان أكثر فأكثر وتزركشان عينيه بالضياء...

* *

نظر حوله... كان الضياء يكسر حصار الستائر المسدلة ليعلن شروق الشمس...

كان يعلم أن المدرسة ستكون محاصرة اليوم أيضاً، لكنه ارتدى ثياب المدرسة وحمل حقيبته بعد أن دسّ فيها إلى جانب كتبه ودفاتره أحجاراً لا تشبه أسماءها، وخرج كما كان يفعل كل يوم قبل ذاك اليوم...

*

أحجار الشطرنج كانت سعيدة بانعتاقها من سجن المربعات حين وقف طفل يتصدى لدبابة وفي قبضته حجر...

أريد النجوم

سرى همس بين الأطفال، وامتلأ جو الصف بضحكات مكبوتة في الصدور الصغيرة، خوفاً من نظرة المعلم الغاضبة ومسطرته المتوعدة! لكن سمير كان مستمراً في وقفته التي أثارت ذاك الغضب عند المعلم بعد عدة محاولات بذلها لإقناع هذا الصبي العنيد:

- هذا ليس صحيحاً يا أستاذ... أنا نفسي كان عندي الكثير من النجوم!! إنها مجرد...

وضاعت بقية العبارة في انفجار الضحكات التي لم يتمالك الأطفال التحكم بأقفال بواباتها...

نظر سمير إلى زملائه وقد واتته خيبة أمل كادت تدفع الدموع إلى عينيه، ثم سمع المعلم ينهر التلاميذ الضاحكين ويهز عصاه في الهواء صارخاً:

- اجلس... وكفاك جنوناً... النجوم هي ما شرحته لك فقط...

*

عندما رن جرس الانصراف، حمل حقيبته كيفما اتفق، حتى أنه نسي ممحاته الملونة المعطرة فوق المقعد، وخرج كالسهم راكضاً من باب الصف دافعاً العديد من زملائه الذين راحوا يصرخون في إثره هازئين:

- على مهلك يا أبا النجوم...

وراح طفل شاحب يراقب تلك الممحاة متمنياً لمسها أو شم رائحتها التي تخيلها حين كان سمير يعرضها على زملائه بعجرفة...

كانت المسافة بين المدرسة وبيته ـ أو قصره كما كان يدعوه أمام الأولاد ـ قصيرة، ومع هذا كانت أمه تصر على أن لا يعود وحده، فترسل من يقلّه بالسيارة أو تأتي هي نفسها لاصطحابه، لكنه في هذه المرة لم يملك الصبر الكافي لينتظر أحداً، وراح يعدو باتجاه المنزل مستعجلاً الوصول... وعلى الرغم من قصر المسافة واستعجاله إلا أنه تذكر كل تلك القصة التي حدثت معه منذ عدة سنوات...

* *

والده فاجأه ذات مساء، هو الطفل ذا السنوات الأربع:

- ما رأيك أن نخرج للتنزه في حديقة المنزل اليوم؟

شعر الطفل بالسعادة، فها هو هذا الرجل الذي لا يراه إلا نادراً يعرض عليه الخروج في نزهة! وراح الطفل يفكر فيما سيفعله أثناءها... هل سيتمكن من الركض والاختباء خلف إحدى النبتات المقلّمة بعناية لتأخذ شكل صناديق كبيرة؟! وراح سمير يتخيل والده السمين يركض خلفه ويتعثر بالأعشاب التي لم يقصها أبو فاضل منذ أيام لانشغاله بزوجته التي كانت سمينة جداً ثم صارت تنحف بعد أن ترك لها طائر جميل طفلاً صغيراً دائم البكاء عند باب بيتها، فاضطرت لإرضاعه كل ما شربته من حليب منذ شهور! وضحك سمير:

" إذا كنت سأشاهد ذاك السقوط، فسأمضي النزهة كلها راكضاً... لكن يمكنني أن..."

وفكر في أن يمضي النزهة وهو يقص على أبيه كيف استطاع التسلق إلى ظهر الخزانة، وكيف أسقط كل ما فوقها من حقائب وأغراض، ثم قفز فوق الحقائب المنفوخة كالبطل... وكيف جعل أمه تصرخ وتبكي وهو يتعلق بحافة الشرفة محاولاً إمساك غصن من إحدى الأشجار القريبة... وخطر له الكثير من الأفكار التي

جعلته يتصور سعادة كبيرة تحط عليه في لحظات تلك النزهة برفقة والده...

- هيا يا حبيبي... هل أنت جاهز؟!

كان أبو سمير ينفذ مرغماً رغبة زوجته التي أرادت أن تقرّب بين زوجها المتغيب عن المنزل دائماً في أعماله واجتماعاته، وبين ابنها الذي لم يكن يرى من أبيه إلا ما يجلبه له من هدايا وألعاب...

- الأطفال بحاجة إلى رعاية آبائهم وعطفهم كحاجتهم إلى أمهاتهم، وأنت تخرج في الصباح الباكر قبل استيقاظه وتعود متأخراً بعد نومه! ألا يمكن أن تعدّه موظفاً من موظفيك، وتفسح له دقائق من وقتك الثمين؟!!

وبدأت النزهة... أول ما حاول الطفل القيام به هو القفز مبتعداً عن أبيه، محاولاً الاختباء خلف شجيرات قريبة كما تخيّل، لكنه فوجئ بحركة سريعة من يد أبيه أمسكت بذراعه وشدته للخلف...

- إياك أن تحاول الابتعاد عني...

وهز الأب سبابته الكبيرة كالعصا أمام عينَي الصغير...

واستمرت النزهة مثل دوران الرحى وذراع سمير مقيدة بأصابع أبيه الفولاذية... وراح سمير، كي يخفف من وطأتها، يقص على أبيه كل تلك الحكايات التي ما زال يذكرها عن بطولاته، محاولاً بين عبارة وأخرى أن يحرك ذراعه المتألمة قليلاً كي يخفف من ضغط الأغلال الرابضة فوقها، لكن الأب كان يرد على حكايات ابنه وضحكاته وحماسته ببرود الجليد وبهزات مصطنعة من رأسه الذي كان مشغولاً بما يحدث في العمل أثناء غيابه!!

الشمس كانت قد غابت منذ فترة، والحديقة كانت مضاءة بالعديد من المصابيح الملونة التي كان يحلو لسمير في كثير من الأحيان، وفي غفلة مصطنعة من الحارس الذي لم يكن يجرؤ على منعه، أن يضربها بحجر ليشهد تناثرها "الجميل"... وراح الصغير الذي شعر بالملل من تحدثه إلى نفسه ينظر إلى أعلى نحو أبيه ليرى ما يشغله، ثم راح ينظر في الاتجاه الذي كانت تنظر نحوه تلكما العينان المرتفعتان، وعندها لمح تلك النقاط اللامعة على سجادة السماء السوداء، فشد أباه من بنطاله:

- بابا... بابا...

- نعم...

- ما هذا؟!!

ونظـر الأب إلى الأعلـى في الاتجـاه الـذي أشـارت إلـيه اليد الصغيرة...

- إنها النجوم...

وظـن الأب أن الأمـر انتهـى بهـذه الإجابـة النهائـية، ولكـن الطفـل، وعلـى عادتـه الـتي صـارت متأصلة في قلبه وعقلـه وعلـى لـسانه عـند رؤيـة مـا يلفـت انتـباهه، صـاح بحماسة:

- أريد النجوم...

شـعر الأب بالملل من هـذه السخافات، لكنه اصطنع ضحكة مقتضبة، ثم قرفص مقابل ابنه ليقول:

- لكـن الـنجوم بعـيدة جـداً، وكـبيرة جـداً... ولا يمكن أن نأتي بها إلى هنا!!

شـعر سمـير أنـه اسـتطاع اجـتذاب انتـباه أبـيه بهـذه العبارة، وراح ينقّل عينيه بين ابتسامة أبيه وبين تلك النقاط المتلألئة في صفحة السماء، ثم صرخ:

- ولكنني أريدها...

ثم شـد ذراعـه بقـوة أجـبرت أبـاه علـى تـركها، ليـشد قبضته ويهزها ضارباً قدمه بالأرض مهدداً بانفجار بكائه في أية لحظة، وهو يصرخ:

- أريد النجوم... أريد النجوم...

شعر الأب بعمق المأزق الذي قاده إليه انسياقه خلف الرغبة الحمقاء لزوجته، فنهض صارخاً في وجه كُبّة الصوت المدوّية:

- يكفي... لا تصرخ هكذا...

وعاد لهز إصبعه في وجه الطفل الذي صمت بانتظار إجابة لطلبه بل لأمره...

- قلت لك إن النجوم بعيدة...

وتذكر الأب زوجته التي قد تسمع صراخه، والتي ما كانت لتقبل بمثل هذا العنف مع صغيرها المدلل، فخفض صوته وعاد فقرفص أمام ابنه الذي ما زال يتوقع أن يمد والده الطويل كالزرافة يده إلى الأعلى ليتناول له إحدى تلك النجوم المتراقصة فوقه، فشهد ترقرق الدموع في عينَي الصغير الذي صار يرى النجوم أشد إشعاعاً، ولمح إحداها ترفع يديها وتلوّح له كي يأخذها إليه، فقال له:

- غداً سأجلب لك ما هو أجمل من هذه النجوم السخيفة... سأجلب لك... سأجلب لك...

وحاول أن يبحث في مخيلته المحشوّة بالأرقام والمشاريع عن فسحة للعبة تصرف انتباه ابنه عن النجوم، لكن سمير أفشل محاولته عندما انفجر صارخاً مقاطعاً

للعبارة، ومنحنياً نحو أبيه كأنه يعتصر صوته إلى آخر قطرة منه:

- لا أريد شيئاً آخر... أريد النجوم... أريد النجوم...

ثم انفجر باكياً...

وفي تلك اللحظة، كان الطفل الحالم باشتمام رائحة الممحاة المعطرة يتسكع في الشوارع، بعد أن طردته زوجة أبيه، متطلعاً برهبة نحو النجوم وهو لا يجد من يمكن أن يسأله:

" لماذا تصر تلك النجوم على زرع أيدي الأطفال الناظرين إليها بالثآليل؟!"

*

وباءت جميع محاولات الأب والأم بالفشل في إقناع الصغير باستحالة تنفيذ طلبه...

- اسمع يا حبيبي...

وراحت الأم تمسح شعر ابنها بحنان:

- إن النجوم كالمسامير تثبّت السماء وتمنعها من السقوط فوق رؤوسنا!!

وضربت يدها فوق رأسها وهي تظهر التألم...

- فـإذا أتيـنا لـك بالـنجوم، فستـسقط الـسماء وسـيتهدم بيتـنا الكـبير، وسـتموت قطـتك الـصغيرة... هـل ترضى بهذا يا حبيبي؟!!

وللحظات شعرت الأم بالتفاؤل في إقناعه، بينما كان سمير يُجري مقارنة بين حصوله على النجوم ونتائجه، وبين عدم حصوله عليها، فشعر بالأسف لأن كل عناده السابق وكـل دمـوعه يمكـن أن تـذهب سـدى إذا أعلـن موافقـته علـى مـا تقـول أمـه! ثم كـيف سـيعرف إن كـان يمكـن للسماء أن تسقط حقاً إذا لم يحصل على النجوم؟!!

وتبخـر تفـاؤل الأم حـين قطّـب الصغير حاجبيه وجبهته وصرخ بتصميم:

- فلتسقط السماء... أريد النجوم... أريد النجوم...

ومضى اليوم التالي على الأم وعلى المربية كالجحيم، بينما فـضّل الأب عـدم العـودة إلى البـيت مـتذرعاً بـضغط العمـل، فقـط كـي يهـرب مـن تلـك العاصـفة الهـادرة في البـيت، ومـن اللـوم الـذي فجّـرته زوجـته في وجهـه بعـد أن حاول وضع مسؤولية ذاك المأزق على عاتقها...

- أرأيتِ؟! هـذا مـن نـتائج تدليلك المفـرط لـه، فقـد عـوّدتِه أن تكـون كـل طلـباته مجابـة... فاسـتجيبي الآن لطلبه هذا...

- أنا المسؤولة؟!! أليس ولدنا الوحيد؟! أينبغي عليّ أن أفعل مثلك وأهمله حتى ينسى أن له أباً؟!! أليس هذا بسببك أنت وبسبب شعوره بإهمالك له؟!

*

واستمرت محاولات الأم لإلهاء سمير بما لديه من ألعاب، أو باصطحابه إلى السوق لشراء المزيد منها له لعلها تبعد انتباهه عن ذاك الطلب المستحيل! ومع كل محاولة كانت تتصل بزوجها الهارب لتخبره بالفشل الذي باءت به محاولاتها...

أحد المستخدمين كان في مكتب أبي سمير الذي يسمى هناك بـ"السيد المدير العام"، ينتظر انتهاء السيد المدير من مكالمته الهاتفية لتوقيع بعض الأوراق، فسمع تلك المكالمة التي دارت بين السيد المدير وزوجته...

- أما زال يريد الحصول على تلك النجوم اللعينة؟!

- ...

- أية مصيبة حلت علينا!! جدي حلاً لهذا وإلا...

ووضع السماعة بعصبية كادت تكسر الهاتف.

عندها طلب المستخدم الإذن بالتحدث، ليقول:

- إنه طفل يا سيدي... ويمكن إقناعه بسهولة...

وتذكر كيف أقنع أحد أبنائه بالامتناع عن مجرد النظر باتجاه النجوم حين صور له بشاعة الثآليل التي يمكن أن تسببها ليديه وعينيه، لكنه كان متأكداً من أن هذه الطريقة لا يمكن أن تنجح مع أبناء السادة، وكان قد حضّر نفسه لطريقة جديدة...

وقال الأب متهكماً يائساً:

- وكيف يمكن إقناعه يا شاطر؟!!

فقال المستخدم محاولاً إبراز خبرته في شؤون الأولاد الذين أنجبت له زوجتاه منهم عشرة يكاد لا يحفظ أسماءهم:

- أحضر له النجوم يا سيدي...

وقفز السيد من خلف مكتبه وقد استشاط غيظاً:

- كيف تجرؤ على السخرية مني؟!

وهجم نحو الرجل كأنه يريد قتله، بينما كان الموظف يتراجع بخوف وهو يحاول تهدئةَ السيدِ منفلتِ الأعصاب:

- معاذ الله يا سيدي... أنا أعني ما أقول... اسمح لي أن أشرح لك...

*

عند ظُهر ذاك اليوم عاد الأب إلى المنزل ومعه إحدى النجوم التي طلبها ابنه! كان سمير وأمه في انتظاره بفارغ الصبر، بناء على اتصال الأب الذي أوضح للأم أنه وجد حلاً.

انتزع سمير النجمة من يدي أبيه وانتحى بها جانباً ليتفحصها ويتأملها، بينما كان الأب يشرح للأم ما أوصله لذاك الحل...

كانت النجمة كرة قدم عادية غطّتها أيدٍ ماهرةٌ في أحد محلات الألعاب، وبناء على طلب شخصي من السيد، بأوراق السلوفان اللامعة، وبأنواع مختلفة من الخرز اللامع، وبقطع الزجاج الشفاف، وبمصابيح صغيرة تضيء وتنطفئ بطاقة بطاريات مخفية بدهاء تحت تلك الطبقات اللامعة المتلألئة...

سمير ترك النجمة وعاد إلى أبيه الذي كان يهمس لأم سمير ليضحكا معاً، وقاطع همسهما:

- بابا... أين باقي النجوم؟! أنا أريدها كلها...

وفتح ذراعيه مشيراً إلى كثرة ما يريد... فانقلبت ابتسامة الأب إلى تجهّم راح يتبادل خلاله النظرات الحائرة مع زوجته... وفكرت الزوجة بحل فقالت وهي تلاطف الصغير:

- أنــت تعــرف أن الــنجوم بعــيدة جــداً، ويــصعب إحضارها كلها دفعة واحدة... لكنني أعدك أن نحضر لك في كل يوم نجمة جديدة...

قلب الولد شفتيه، وتأمل الرجل والمرأة المنتظرين بخوف لردة فعله، ثم استدار عائداً إلى نجمته، بينما تنفس الوالدان الصعداء...

طفل الممحاة كان يدحرج الحصى في الشارع متخيلاً أنها كرات، ثم يضحك ملء صدره عندما ينجح في اقتناص هدف من حارس المرمى الطويل المسمى عامود الكهرباء!!

*

طوال أسابيع تكومت النجوم في كل مكان من منزل سمير، الذي ظل يعلن انبهاره بها وبأشكالها وألوانها الجديدة التي راح صانعوها يتفننون في إضفائها لإرضاء السيد، ثم راح يفكك كل تلك الألوان والقطع اللامعة والمصابيح ويكتشف الكرات التي تحتها ليسخر من أبويه "الساذجين" اللذين لا يعلمان أن النجوم مجرد كرات!! إلى أن رمى بكل النجوم وكل الكرات وراح

يبحث عن وسيلة جديدة لتسليته، منهياً حالة القلق والتوتر التي عاشها ذاك البيت طوال أسابيع!!

* *

صفق الباب خلفه ورمى حقيبته بعيداً وهو يصرخ منادياً أمه، ومحطماً كل ما يواجهه... فهرعت الأم والمربية استجابة لصراخه، وبالكاد استطاعت أم سمير أن تسأله عن سبب تلك العصبية كلها، فقد انفجر في وجهها باكياً:

- كيف استطعتم أن تخدعوني؟! لماذا سمحتم لأنفسكم بأن تكذبوا عليّ؟!

وعبثاً حاولت الأم تهدئته لتفهم ما يعني:

- اهدأ يا حبيبي وأخبرني بما حصل...

فعاد للصراخ المجبول بالدموع:

- اليوم علمت أن النجوم هي كتل نارية في السماء، وأنتم أحضرتم لي الكرات وقلتم: هذه هي النجوم... أليس هذا خداعاً؟! أليس هذا كذباً؟!

وبعد أن خبت عصبيته اندفع إلى غرفته وأقفل بابها، متجاهلاً نداء أمه في الخارج، وراح يُعِدّ قراراً:

" الجميع خذلوني... ذاك المعلم الذي أخبرني بتلك السخافات عن الكرات النارية الطائرة، وأولئك الأولاد الذين كنت أظن أنهم أصدقائي فسخروا بي، وأمي وأبي... لكنني لن أقبل بهذه السخرية وسوف أريهم!!"

وراح يحلم بيوم يصبح فيه كبيراً وقادراً على أن يستقل مركبة فضائية توصله إلى النجوم ليأتي بها ويغيظ كل من ضربوه بأيد خفية من اهتمامهم المفرط أو إهمالهم... من حزمهم أو من سخريتهم!!

طفل المحاة الشاحب أيضاً راح يحلم بيوم يصبح فيه كبيراً وقادراً على مد يد العون لطفل يحلم بممحاة معطرة ويمضي مساءه المطرود مدحرِجاً كرات الحصى، دون أن يجرؤ على التطلع نحو النجوم...

* *

وفي السماء البعيدة كانت نجمة صغيرة تهز قبضتها المشعّة في وجه نجمة كبيرة مرتبكة وهي تصرخ:

- أريد الأطفال... أريد الأطفال...

أسطورة

- ما الذي دفعني إلى هذه الحماقة ؟!

نظر إلى السماوات البعيدة تحته... قد تكون هذه المرة آخر مرة يراها فيها من هنا ، لكن التراجع الآن مستحيل، ثم إن شيئاً في عمقه كان يدفعه ليكمل لعبته التي بدأ...

* *

- لا تعبث بأوساخ المجرات يا بروميثيوس...

لم يكن يأبه لتحذيرات الآلهة الكبرى، وكان يترك عالم الآلهة الرحب ليحشر نفسه بين الكواكب المظلمة... يدور حول هذا ويلطم ذاك ليبعثره إلى كويكبات صغيرة أو يصدم اثنين ليدمجهما؛ ويبتكر في كل يوم لعبة جديدة، ويملّها ثم يبتكر غيرها ، إلى أن توصل إلى لعبته

الأخيرة التي قادته الآن إلى هنا... فقد راح يجمّع بين يديه الحاذقتين أوحالاً ويجعل منها تماثيل على شاكلته، إلى أن عبّأ في جيوبه الكثير منها، وراح يلقي بكل واحدة على كوكب مختبراً مهارته في التسديد وفي إبعاد ما يرمي إلى أبعد حد... لكن الملل تسرب إلى قلبه فحط فوق كوكب صغير صار يسمى فيما بعد "الأرض"، ونثر ما بحوزته من تماثيل حوله وراح يتأملها مفكراً...

- لماذا أكون الأصغر والأقل شأناً دوماً؟! سأجعل من هذه الأشياء كائنات تراني الأعظم والأقوى، ولكن كيف؟!

لم يرغب في طلب المساعدة من الآلهة الأخرى، فعندها لن يكون خالقَ هذه الكائنات الأوحد، وراح يحفر ذاكرته بحثاً عن القوة التي ستجعل من هذا الطين مخلوقاً حياً يدين له بالطاعة والعبادة، إلى أن وجدها...

- لا بد أن ذلك الكنز الذي تحرص عليه الآلهة كل الحرص يحمل السر الذي أبحث عنه...

لهذا تسلل إلى قصر زيوس بحثاً عن السر الدفين...

* *

- ما الذي ستفعله الآلهة عندما تعلم بأنني...؟! ما الذي سيفعله زيوس؟!

طرد التساؤلات الجبانة من رأسه وراح يتقدم على رؤوس أصابعه نحو الغرفة التي تحتضن الصندوق المؤلم ملمسه بسبب جنون السر المستعر في قلبه...

فتح الباب وتقدم نحو الصندوق اللّاهب وقد اربدّ وجهه ثم مد يده نحو غايته التي يجازف لأجلها برضى الآلهة... فجأة انغلق الباب خلفه بقوة كادت توقع قلبه بين قدميه، واهتزت جدران الغرفة حتى كادت تسقط... فاستدار نحو الباب مغالباً السقوط متوقعاً رؤية زيوس مع جيش من الأرباب بانتظار تحطيمه، لكن كل شيء كان على حاله... فقط صدره صار أضيق من أن يتسع لخوفه الذي تفجر ليهز الغرفة وجدرانها الصلدة...

- يجب أن أسرع...

حمل الصندوق المحرق وخرج من حيث دخل، مسرعاً نحو نفايات الكون التي تأنف الآلهة دخولها...

لم يصدق أنه نجا دون أن تشعر الآلهة بتمرده على سيدها... ألقى نظرة مودعة على عالم الآلهة عند الحد الفاصل بينه وبين الكون الكثيف، وشد الصندوق الحارق إلى صدره واتجه نحو تماثيله المرمية على ذاك الكوكب الصغير...

- لن أعطي مخلوقاتي الصغيرة إلا القليل من هذا الكنز، وسأترك الباقي بعيداً عن متناولهم كي يدينوا لي أبداً بسر لا يستطيعون النفاذ إلى غوره...

فتح الصندوق فغطى عينيه لهول المفاجأة التي ألقاه فيها توقّدُ هذا السر واندفاعه العظيم للتحرر من الأسر... نشر التماثيل حوله وقد وجّه عيونها نحوه كي تكون صورتُه العظيمةُ أولَ صورة تنطبع في رؤوسها الطينية، ثم رش القليل من ألسنة كنزه الكبير عليها حتى تماسكت واستشعرت الدفء فراحت تتحرك ناظرة بخشوع وتهيّب إلى مَن وهبها الحياة... ولاحظ تخبطها في الظلام وارتجافها برداً، فنثر المزيد من ضياء السر العظيم حولها وعلّمها كيف تفيد منه، ثم أطلق قطعة كبيرة من كنزه صارت تسمى فيما بعد "الشمس" بعيداً عن الكوكب المظلم كي تهب مخلوقاته الدفء والنور، ثم نثر في أرجاء الكون قطعاً كثيرة من كنزه لتزين سماء مخلوقاته كي لا تشعر بالوحشة وسط الظلام الدامس، وكي يزين عالمه الجديد بعد أن صار عاجزاً عن العودة إلى عالم الآلهة بسبب فعلته هذه...

* *

في العالم العلوي هرع الآلهة جميعاً للاصطفاف جيشاً مستعداً للتحرك بأمر من رب الأرباب زيوس الذي تفجر غضبه بصورة لم يرها الآلهة منذ الأزل...

- من يجرؤ على اقتحام قصري وسرقة سري؟!

ولأن أحداً لا يعرف لم يجرؤ أحد على الرد على عاصفة زيوس المدمرة...

- ابحثوا عنه لأمزقه وألقي بأشلائه في العالم السفلي...

ولم يحتاجوا إلى وقت طويل للبحث عن السارق، فقد لمحوا جميعاً الزينة التي انطلقت من العالم الكثيف لتنيره وتعطيه قوة الجذب التي لم يمتلكها يوماً...

- إذاً فهو بروميثيوس...

زمجر زيوس وشد قبضته حتى كاد الآلهة حوله يختنقون من غضبه، ونظر باتجاه الحثالة المهملة، مهيّئاً حنجرته للأمر بإحضار العاصي كي يمثل أمامه، لكن المنظر الذي شاهده صدّ الكلمات عند بوابة شفتيه ودحرها حتى بطنه، وحرك في رأسه ما لم يتوقع تحركه في لحظة غضب كهذه...

- ما أجمل ما صنعتَ يا بروميثيوس بسري العظيم!!

وغرق في تأمل عميق...

- بماذا يأمرنا زيوس العظيم؟!

وخرّ الإله المستفسر خوفاً من بطش الإله المطعون في الظهر... لكن زيوس أجاب كالمنوَّم دون أن يزيح نظره عن المشهد البعيد:

- فليذهب أحدكم لاستكشاف ما فعله ذلك الأخرق...

بعد لحظات فقط كانت قصة بروميثيوس مع لعبته الجديدة ترن في رأس زيوس، فارتسمت على شفتيه ابتسامة ماكرة وخاطبهم كمن يكلم نفسه:

- دعوه يلهو، فسيكون عقابه لا على يد زيوس العظيم، بل على أيدي ألعابه الطينية... أما أنا فأستطيع متى شئت خلق سر جديد...

* *

- بروميثيوس... أيها الخالق... أيها الأقوى... أيها الأعظم...

راحت مخلوقات بروميثيوس التي دعَت نفسها "بشراً" تملأ صدره بالفخر في المعابد العظيمة التي أقامتها من أجله، وجعلت ما كان سرَّ زيوس رمزاً لخالقها أسمته "النار"، فصار بروميثيوس ينتفخ ويتعملق زهواً وغروراً حتى

صار أكبر من أن تراه مخلوقاته القزمة التي أبدعت في إطلاق التسميات عليه وعلى كل ما يحيط بها... ولم يكن يعكر صفوها إلا اختفاءُ الشمس بين فينة وأخرى في أثناء النهار وخوفُها من أن لا تعود فتظهر ثانية، دون أن تعرف لهذا الاختفاء تفسيراً، في الوقت الذي كان يختفي فيه أحد الآلهة من عالم الآلهة دون أن يفتش عنه أحد، لأن الجميع كانوا يعلمون أنه يزور العالم الكثيف الذي صارت تطلق عليه الآلهة نفسها، وبعيداً عن مسمع زيوس، اسم "عالم النجوم"...

* *

- سيدي زيوس... بروميثيوس على تخوم عالمك العظيم يطلب مقابلتك...

دغدغت الفرحة قلب زيوس، لكنه ابتلع ابتسامته وأمر بإحضار العاصي أمامه...

- كيف تجرؤ على الحضور إلى هنا يا بروميثيوس بعد ما فعلت؟!

- سيدي زيوس... يا رب الأرباب ويا كبير الآلهة... جئت أطلب صفحك وعفوك...

مادت القاعة تحت أقدام بروميثيوس لفرط الشماتة التي غزت قلب زيوس، فأطرق من جديد ودمعةٌ تبدو نادمةً تنحدر على خده الحزين...

- أخبرني يا بروميثيوس بما حصل معك...

ظلت أطيان بروميثيوس تتذكره زمناً طويلاً، مع طلعة الشمس ومع كل شعلة نار ومع كل نجمة تلتمع في السماء، إلا أن هذه المخلوقات المصنوعة من كثيف أطيان المجرات ما كانت لتستمر في تعظيم ما لا ترى، فراح النسيان يغزو رؤوسها، وراحت تبحث عما يملأ تجويفها بعد أن أفرغته من بروميثيوس الذي راح يصغر ويصغر، فقرر الابتعاد عن هذه المخلوقات كي لا تتهمه بالضعف عندما يعود إليها وقد حطمه جحودها وحوّله إلى قزم ممسوخ... فكّر مرات بإفنائها، لكن أمله بأن يعود إلى ذاكرتها يوماً بطريقة ما منعه...

- كيف أحطمها وقد صنعَتْ مني ما لم أكنه يوماً؟!

وظل مع ازدياد صغره يتوارى عن أنظارها هنا وهناك حتى نسيته تماماً، وصارت النارُ معبودَها...

- تصور يا سيدي زيوس... نسوا أنني وهبتهم نار الحياة ونار الأرض ونار السماء!..

تململ زيوس فوق عرشه وقد تذكر أن النار هو اسم سره المسروق، دون أن ينبّه بروميثيوس إلى أنه يستطيع أن يهب ما يصنع فقط لا ما يسرق...

وكاد بروميثيوس يفقد عقله عندما سمع قصة النار التي راحت مخلوقاته تقصها... فقد توصلوا عبر حماقاتهم إلى أن عصفوراً كان قد بنى عشه في دردار السماء أحضر معه النار إلى الأرض كي تهبهم الحياة والدفء...

- حتى ما جعلته في متناولي وبعيداً عن متناولهم من النار، صاروا يصنعون المركبات التي تمكنهم من الوصول إليه كي يسلبوني ألوهيتي...

وانهار بروميثيوس أمام مخلوقات خلقها وعجز عن تحطيمها وتحطيم نفسه وتضحيته فيها، وراح يفكر في الطريقة التي تعيده إلى عظمة الآلهة في عيون الطين...

* *

- وما الذي تريده الآن يا بروميثيوس ...

- أعتقد يا سيدي أنني نلت من العقوبة ما يكفيني، لهذا جئتك نادماً راجياً أن تعيدني عبداً في ظلك...

كان زيوس يفكر في أن عقاب بروميثيوس كان مضاعفاً على يد مسوخه ويهمُّ بنطق كلمة العفو عنه عندما كان بروميثيوس يسترق النظر عبر إطراقته الخاشعة إلى ما وراء عفو زيوس، نحو صندوق محكم الإغلاق فيه سر عظيم جديد...

روميو و روليت

أسمَوه روميو... أما هي فلم تظهر عليها عوارض الجولييت، فلم يقربوها !

صارت الحديثَ الوحيد المتوفر بغزارة على لسانه... يكفي أن يوجّه أحدهم تحيةً إليه، ليبدأ قصته التي لا تنتهي عن حبِّه لها... مشط شعره الطويل ولحقها في كلّ أزقة القرية، دون أن تلتفت إليه... زرع نفسه عند نافذتها لليال ولياٍل مطالباً بنظرةِ رفقٍ من عينيها الآسرتين، بينما كانت تغوص في "سابع نومة"... لبس الحزن ورجاها أن تهديه ثوبَ السعادةِ بابتسامةٍ فقط، فطوت كل قماش السعادة خلف شفتيها...

" لماذا ترفض محادثتي؟ ألأنها تكرهني؟! لا... مستحيل... لابدّ أنها خجلة، لهذا سأطلب يدها وليكن ما يكون!!"

لم تنجُ يدٌ لأيٍ من كبار رجال القرية من لعابِ قبلاته، كي يتوسطوا له مع أبيه ليطلب له معبودته من والدها الخنزير حسب رأي أبيه... ولأن أباه يمقت الخنازير وذكرها منذ انهمرت العداوة بين العائلتين لتضع بينهما بحراً يصعب تجاوزه، فقد ردّ المتوسِّطين محمَّلين بالشتائم الموجهة إلى الخنزير ظاهراً وإليهم حقيقةً...

أما روميو فقد اشتعل خوفاً من بطش أبيه النزق، فغادر البيت هرباً إلى مغارةِ الوادي...

" هل صرت مجنوناً حقاً؟! فكيف أجرؤ إذاً على النوم في هذه المغارة التي لا يجرؤ على دخولها حتى المجانين؟!"

تلفت متأملاً الظلام الواسع في ضيق المغارة:

" إذا كنتَ يا روميو لا تخشى ضباع الوادي، فهل تخشى خنازير عائلتها؟! فليأت الليل ليشهد ما سأفعل!!"

* *

الرجل الأنيق الوسيم الذي يعرفه الجميع ولا يعرفه أحد، راح يفكرُ في نهاية جديرة بقصص الحبّ، لهذا فقد أبعد بإشارةٍ منه غنمةً عن قطيعها، وساق إليها الضبع المعتاد على التردّد إلى تلك المغارة، ليظلّ بعيداً عن تلك

المغارة في تلك الليلة، ثم أطلّ من نافذته التي تطل على كل مكان منتظراً أمراً فكر فيه...

* *

استلقى على الصخور المكتسية بروائح واخزةٍ، وراح يحدّق في الظلام الملتصق بعينيه إلى أن غفا...

استيقظ عند منتصف الليل ليجد القمر قد أطل من الشرق مكسوراً متكاسلاً، فتسلل من مغارته سابحاً في الموج المظلم نحو بيتها... رأى القرية داكنة البيوتِ والقلوب، فشعر بأنامل الخوف تدغدغ قلبه العاشق:

" كيف لم أفكر بهذا؟! إذا كانت ترفض حتى التحدث معي، فكيف ستقبل الهروب؟!"

طعنه التساؤلُ...

" أنت مجنونٌ حقاً... الأفضل أن أعود أدراجي... لكنني في شوقٍ إليها، سوف أُلقي عليها نظرةً واحدةً وأمضي..."

وأمام نافذتها المفتوحة مدّ عنقه ليراها، فاصطدمت عيناه بالظلام وبقماشٍ مقصوصٍ من أكياس المؤونة تم تعليقه على النافذة... ارتطم شوقه بالستارة الخشنة فتبعثر إلى شقف صارت كلّ منها شوقاً جديداً... مدَّ يده لإزاحة

القماش المحيط لبصره، لكن يداً شدته من الداخل بعنف أهوج ليسقط وليمةً سريعةً لضرباتٍ وركلاتٍ من عدّة رجالٍ حانقين...

كانت أخبار والده في الصباح قد سالت عبرَ كلّ القنوات في القرية لتصل إلى كل البيوت بما فيها بيت حبيبته، فاستعدَّ أخوتها لهذه الساعة التي لم ينتظروها طويلاً بسبب تهوّره...

* *

أيقظته ربتاتٌ رتيبةٌ على صدره... فتح عينيه المثقلتين ليرى عبرهما رجلاً ممّن يراهم عبر التلفاز، أنيقاً وسيماً وعلى وجهه ترتسم ابتسامة تمنح الثقة لمتلقيها قبل الدخول في متاهات اللغة...

- اسمع...

همس الغريب القريب بهدوءٍ ثقيل...

- إذا كنت تصرُّ على الوصول إلى حبيبتك بطريقتك المجنونة هذه فستموت حتماً... انظر...

لم يعرف في أيِّ بيتٍ من بيوت القريةِ هو، لكن النافذة التي أطل منها بمساعدة الغريب كانت تشرف

على البيت الذي نال فيه ما نال... كان الخنزير و أبناؤه وعدد من أقاربهم يتجمّعون أمام البيت وحوله...

- إنهم ينتظرون عودتك...

وأمام تساؤل عينيه أضاف الغريب:

- ليقتلوك هذه المرّة...

أفزعته العبارةُ فابتلع لعابه المتحجر...

- هناك ستموت حتماً... خيارك الوحيد هو الموت... أما معي فأنتَ أمام خيارين أحدهما الموت، أما الآخر فهو حبيبتك!!

لم يفهم... غزته بلادةٌ لم يخبرها يوماً بهذا الحجم، وقبل أن يتفوَّه بسؤاله، أدار الغريب له ظهره ليتوجه إلى صندوقٍ لبس أصداف البحر فنسي عُري الغابةِ، ومن الصندوق أخرج مسدساً لم يشاهد روميو مثله إلا في أحد أفلام السينما الذي شاهده في المدينة مع أصحابه، فأسموه حينها " أبو بكرة "، ومن علبةٍ ضاقت بما في بطنها أخرج رصاصةً دسّها في بكرة المسدس وأغلقها:

- إن نجوتَ من هذه الرصاصة فستكون حبيبتك لك، وفي كلِّ مرة تنجو فيها منها سيكون لك ما تريد!!

ودون أن ينتظر موافقته أدار البكرة بسرعةٍ، وصعق صدغ روميو ببرودة السبطانة... سمع روميو الطلقة تتفجر في رأسه ورأى نفسه جثة تتدحرج في دمائها في مكان لا يعرفه، ودون أن يعرف سبب إذعانه لهذا القادم من حيث لا يدري كزّ على أسنانه منتظراً الطلقة التي اكتفت مع ضغطة الزناد بهمسة " تك" ألقته مغمى عليه...

الرجل الوسيم الأنيق وضع المسدس على صدر روميو ثم حمل المكان وغادر منتشياً، تاركاً عينيه تراقبان...

* *

وجدوه مع المسدس على صدره، فحملوه إلى بيت أبيه الذي كان حانقاً، بينما راحت الأخبار تتسلل بأذرعها الملتفّة إلى كلِّ أذنٍ في القريةِ...

" المسكين كان محطّماً بسبب ما فعلوه به... للمسدس الذي معه قوة مدفع، فهو قادرٌ على قتل جمل... لابد أنه حاول الانتحار... أبوه المسكين جُنَّ جنونه لحاله وقرر أن يطلبها عروساً له على الرغم من... لابد أنها أشفقت عليه لما كاد يفعله بنفسه ولهذا وافقَتْ... العائلتان قررتا التصالح من خلال الزواج... لابد... هل سمعتم... هل علمتم... أخبرونا أن..."

لم يصدق أنها صارت عروساً له... بكى فرحاً، وشعر بالامتنان لذلك الرجل الذي أهداه كلَّ هذه السعادة، فخبأ ذلك المسدس مع رصاصته في بكرته ذكرى للحظةٍ غيّرت حياته...

* *

الرجل الأنيق الوسيم لمح عبر نافذته حزناً عميقاً في عينَي العروس لم يطفُ بعد على سطح روحها كي تشعره... نظر في ساعة يده التي تملك توقيتها الخاص وشعر أن القصة ستطول إن لم يتدخل، وبأن الملل سيسرق متعته بالنهاية التي خطط لها...

كانت قبل زواجها تحلم برجلٍ يسلب حبها بهالته الساحرة على فرسٍ بيضاء، لا برجل يستجدي شفقتها بسقوط متعمد عن حمارٍ أعرج... برجل يفضّل الحياة لا الموت من أجلها... لهذا فقد فتح الخارجُ من أعماق الجميع دون أن يلمحوه صندوقه السحري ليخرج منه قارورةً فيها ماءٌ رشه على أجفانِ العروس النائمة كي تزهرَ أحلامها بفارسها الساحر بعد أن ذوت بزواجها...

* *

وهكـذا راحـت رطـوبة الـسعادة الـتي لفّـت رومـيو تـتكاثف لتـتحول إلى بحـرٍ راح يغمـره ويحـيل حلمـه إلى كابـوسٍ ثقـيل، فهـذه المـرأة ليـست إلا صـورة مدمِّـرة مـن حبيبـته، ومـع تخـبطه اليـائس في تعاسـته الجديـدة تذكـر ذلك الرجل وعبارته:

- في كل مرة تنجو فيها منها، سيكون لك ما تريد!

قفـز نحـو الوسـائد التي خبأ تحتها المسدس، وهو يتمنى أن تحقّق لـه هـذه الرصاصـة الـراحة الـتي فقـدها منـذ حين... بينما كان الرجل الأنيق الوسيم يراقب اللعبة فقط...

أخـرج المسدس... أدار بكـرته بسرعةٍ كمـا فعل ذلك الـرجل مـن قـبل... وجّـه الـسبطانة إلى صـدغه المحـترق... وبخوفٍ آملٍ ضغطَ الزناد...

* *

الـرجل الوسـيم الأنـيق سـبق الجميع إلى الجثة المغتسلة بـدمائها، فأخذ مسدسه مع رصاصة فارغة باحثاً عن قصة جديدة قد تكون قصة حب...

* *

وفي القـرية تفجـرت مـئات القـصص عـن مقـتل رومـيو برصاصة لم يعرف أحدٌ من أطلقها!!

ليلة حب

هذه الليلة... هي الليلة الأولى التي يقضيها قربها، لا لأنه حقق أمنيتها التي طالما رجته أن يحققها لها، لكنْ لأنها أتته بنفسها مكلّلة بالبياض، محقّقة ما بات تحقيقه محض عبث!

تململ شاداً جسده نحو جسدها، وتذكر... بالأمس فقط...

* *

بالأمس فقط، كان المساء ككل المساءات... غسل يديه من الدماء العالقة بها بعد تنظيفه كل الآنية، وشد بنطاله حتى بلغ سرّته... استنشق الهواء المفعم برائحة اللحوم أمام باب محله... دفع بسعال وحشي رائحة عششت في صدره دون أن يجرؤ على اجتثاثها، ثم أغلق الباب ومضى...

العشاء في المنزل كان بانتظاره، وبهية أيضاً مع رجائها اليومي:

- لماذا لا تكف عن هذا يا رجل؟! ألا تحس بما نعاني؟!

لم يجب... فقط شعر بوخزة في صدره دفعت الدموع إلى عينيه، فأشاح بوجهه عن مرأى زوجته...

ازدرد عشاءه ببطء كعادته، بينما ظلت تراقبه دون أن تتذوق لقمة واحدة...

منذ الليلة الأولى لزواجهما زرع في روحها غصة ملوِّعة حين غادرها عروساً منتظرة ولم يعد إلا فجر اليوم التالي... كانت قد شعرت أثناء تردده على بيت أهلها لخطبتها أنه يخفي سراً، فصمته العميق وشروده خلف نظرة بعيدة نحو اللاشيء وحساسيته الشديدة من كل أصفر لامع أوقعت في قلبها توجساً غامضاً، لكن رقته وتأكيداته لها وكل ذاك الصدق الذي بثّته عيناه جعلتها تصدق أن ما تظنه مجرد وهم...

أنهى عشاءه ولفّ رأسه كعادته بغطاء صوفي دافئ... رجته البقاء بقربها لهذه الليلة فقط، فقد باتت تشعر بانقباضات الرعود في رحمها مؤذنة بربيع قادم، لكنه لم يتمالك خوفه، فضمّها مطمْئناً وخرج وهو يرمق في عينيها

عينَي فتاة صغيرة متعلقتين بأمها الراحلة مغرورقتين بدموع العتب... كان يعلم أن فترة الحمل كانت صعبة، بالتحديد بسبب المعاناة التي زجها فيها، لكن استنفاره لكل طاقاته لم يستطع إخراجه مما جعلها تزداد انهياراً يوماً بعد يوم...

في طريقه مر بالداية أم الجبر وأوصاها بروحه اللائبة في البيت خيراً... لم تسأله المرأة التي ابتسمت ذاهلة أمام ضعفه عن وجهته، فقد كانت قصته قد صارت على كل لسان، لكنها لم تصدق أن هذا المرتجف خوفاً وإشفاقاً هو الذي...

بهية كانت قد ظلت فترة طويلة وهي تجهل المكان الذي يذهب إليه كل ليلة، فلا يعود إلا عند الفجر، وكانت الأفكار تركلها في ملعب الشكوك من زاوية إلى زاوية دون أن تنزاح الغمامة المانعة لرؤية الحقيقة عن عينيها... ظنت أنه يتردد على النوادي الليلية في المدينة، أو أنه يقامر مع عدد من السكيرين والمقامرين، ثم راحت تفكر في إمكان وجود عشيقة له يقضي لياليه بين أحضانها، وفسّرت بهذا برودة معها... واختلط في قلبها الحب بالغيرة بالخوف حتى توقدت حيرة... عانت كثيراً وسألته كثيراً فلاذ بالصمت... رجته هامسة وصارخة

وباكية دون أن يهتز له جفن أمامها ، على الرغم من شعورها العميق بتوقد النيران في صدره... إلى أن خطر لها إرسال من يبحث عنه، ثم إرسال من يراقبه، لأن البحث عنه في كل الأمكنة التي قد تخطر في البال لم يُجدِ نفعاً...

أخوها الذي تكفل بمراقبته أخبرها بآخر ما يمكن أن يخطر على بالها ، بل بما لا يمكن أن يخطر على بالها إطلاقاً ، فلم تصدق...

- لعلي لم أسمع، فأعد أرجوك...

- زوجك قضى ليلته في إحدى الخشخاشات... في المقابر...

كادت تجن... لماذا يهجر بيته ويقضي لياليه بين الأجساد المتفسخة؟! وراحت تتلظى... كيف لم تعرف؟!! كيف لم يعرف أحد من قبل؟! وعند الصباح أجابها باقتضاب على أسئلتها :

- لم يعرف أحد لأن أحداً لم يهتم للأمر كما اهتممتِ، ولأنني لم أرغب في إخافة أحد...

- توقف عن هذا... من أجلي...

- لا أستطيع...

- سأخبر من يمنعك...

رمقها بإشفاق عميق، وأجاب بثقة الموت في قدرته على التسلل إلى كل العروق ولو بعد حين:

- سيفشلون...

- سأخبر حراس المقابر كي يطردوك...

ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة مشفقة، وفك أزرار قميصه المعفر بغبار الموت، وهمّ بإجابتها، لكنه شعر بالعجز، فقد علمته قصته الطويلة أن حراس المقابر هم الأموات الذين يحيون في داخلنا فيخيفوننا من أموات هناك، لا حول لهم ولا قوة، وهو لم يجرب يوماً أن يصوغ فكرته تلك في عبارات ليقنع بها أحداً ما، فأنهى بالصمت العميق ذاك النقاش العقيم...

* *

كان في العاشرة من عمره... ذئباً تخشاه نعاج الأطفال ويفخر به والداه:

- شبّ ولدنا باكراً...

- ما شاء الله... صار رجلاً...

فامتلأ غروراً بكل ما سمعه وبكل ما استشعره من قوة، وراح ينأى بعظَمته عن الصغار الضعفاء ويتقرب ممن

يكبرونه سناً ليجاريهم في كل ما يفعلون ويتحدثون، وليكون نداً لهم... إلى أن كان يوم...

- كم أرغب في تحطيم هذا الطفل المسترجل!

- وأنا كذلك... فلن أنسى أبداً يوم تحداني بقبضته تلك وهزمني...

- لماذا لا نلهو معه قليلاً؟!!

- كيف؟!

- سأخبركم قبل أن يأتي مساء لاستعراض عضلاته أمامنا...

وكان المساءُ، فانضمَّ إلى الفتيان في أحاديثهم الصاخبة، إلى أن بدؤوا بتنفيذ ما اتفقوا عليه وهو ينصت صامتاً...

- أنت جبان...

- لست جباناً...

- لو لم تكن كذلك لما رفضت التحدي الذي عرضناه عليك...

- هل جننتم؟! تريدونني أن أتسلل إلى المقابر وأن...

هنا دفعت الحماسة الطفل المسترجل إلى التدخل:

- أتخافون التسلل إلى المقابر أيها الجبناء؟!

عندها ارتسمت على وجوه الفتيان نظرة لم يدرك أبعادها إلا متأخراً، وردّ أحدهم:

- لسنا جبناء، لكنهم يتراهنون على اقتلاع الأسنان الذهبية لأم العبد التي توفيت بالأمس...

شعر بالقشعريرة، فشد قبضته ليثبّت عضلاته المرتعشة:

- ولم لا؟! يمكنني اقتلاع أسنانها وعينيها أيضاً...

وتسللت الحيلة مكشرة عن أنيابها تحت ثيابه، وتم الرهان...

*

قبل خروجه من المنزل توقفت عيناه طويلاً عند السكين الكبيرة في المطبخ، لكن شرط الرهان أن لا يحمل سكيناً أو أية أداة يمكن أن تكون سلاحاً...

" ماذا لو فاجأني حيوان ما؟! "

وراحت مخيلته الطفلة ترسم صورة كلب بحجم الثور يهاجمه هناك حيث لا أحد يسمع استغاثته... هزته الفكرة، فتناول السكين ليخبئه تحت ثيابه مع المصباح الصغير والكماشة التي سيقتلع بها الأسنان الذهبية، ثم

خرج متسللاً نحو مقابر البلدة دون أن يشعر به أحد من أسرته...

البرودة غزت جسده، والظلام تسلل حتى أعماقه وهو يخطو نحو باب الخشخاشة... ضوء المصباح الصغير في يده كان شحيحاً جداً حتى أنه استطاع بصعوبة أن يستدل على القفل الموصد للباب... بحث عن حجر كبير يكسر به القفل وخيّل إليه أن التراب أحمر بلون الدم وأن أنفه يشتمّ رائحة الموت المنسابة بوحشية عبر ثقوب خلّفها الزمن في جدران المقبرة... علت ضربات الحجر كانفجارات في سكون الليل حتى كُسر القفل، وصرّ الباب الصدئ وهو ينفتح على العالم المجهول المظلم... دار الضوء الشحيح في زوايا الغرفة المخصصة لراحة أجساد الموتى، واستقر فوق تابوت لا يزال شكله يحتفظ بنضارة افتقدها داخله... اقترب وقد تحول جسده كله إلى قلب متفجر مع كل نبضة... هاجمته رائحة البشر التي لا يكشفها إلا الموت فتراجع خطوة...

" لماذا نسيت إحضار ما أغطي به وجهي؟! "

غطى أنفه وفمه بالكم الأيسر لكنزته الصوفية وتقدم ثانية... شعر أن الزمن يستطيل وأن عيون الموتى من حوله تطل متطفلة عبر توابيتها لتكتشف ما أتى من أجله،

فعجّل برفع الغطاء الخشبي وبكشف الكفن عن وجه أم العبد بعد تردد قصير... خيّل إليه أن هذا الوجه ليس لأم العبد التي رآها منذ أيام فقط في الطريق... وكأن الموت يعطي للموتى شكلاً جديداً، بل حياة جديدة... وبدأ مهمته... لم تكن سهلة كما تصور، فقد كان جسده يرتعش كزلزال، وجسد الميتة متيبساً وكأنها تخشى ألم اقتلاع أسنانها حتى وهي ميتة... لكنه أخيراً تمكن من الحصول على ما أتى من أجله... كان ضوء المصباح الملقى إلى جانبه قد بدأ يحتضر، وراح شعور بالاختناق والغثيان يغزوه، فدسّ السنَّين الذهبيَّين في جيبه وحمل الكماشة والمصباح، وتراجع مقرفصاً خطوتين إلى الوراء وهو يحدق بالكفن الممزق، وكأنه يخشى أن تنقضّ عليه يد أم العبد إذا ما أدار لها ظهره... ثم وقف واتجه نحو الباب بقدمين خدرتين غادرتهما الدماء نحو رأسه الذي كاد ينفجر، وعلى الرغم من أن الظلام كان دامساً في الخارج إلا أنه – وهو في الداخل – كان يرى الضياء يتسلل عبر الباب إلى هذه الوحشة وإلى روحه التي كانت تتلوى فزعاً... استند إلى الباب الضيق وهو يغالب السقوط واشتمّ رائحة النسيم العليل منسابة من الخارج وكأنه يشتمُّها لأول مرة في حياته، وخطا الخطوة الكفيلة بإخراجه من هذا القبر كي يُبعث حياً... كان ضوء المصباح قد خبا

تماماً وكأنه متواطئ مع لحظة قادمة تفجرت حين ظن أنه نجا مما حشر نفسه فيه، فقد لطمته عدة أجساد تصورها عملاقة، وشعر بقبضة حديدية تمسك به من ساعده وتضغط كأنها تنوي قطعه ثم تتركه لتتشبث بساعده الآخر... وعلت من حوله أصوات طيّرت ما تبقى من عقله بعد رحلته المجنونة، فسحب السكين دون تفكير وراح يلّوح بها في الفضاء صارخاً حتى سمع أصوات الأموات هاربة متعثرة هنا وهناك من حوله، وشعر أنه قد صار وحده في هذا الفراغ وأن قواه قد خارت تماماً، فألقى السكين وألقى بجسمه المحطم إلى تلك الغرفة ليشعر بطمأنينة البعد عن الخارج، وليستعيد شيئاً من قواه ووعيه...

*

- هل وجدتموه؟!

- يقولون إنه ليس في المنزل...

- هل يعقل أنه غائب عن المنزل منذ ثلاثة أيام؟!

- هل آذاه ما فعلنا به؟!

وأثناء هذا الحديث الذي تكرر مرات خلال الأيام الماضية دخل عليهم مختلفاً عما كانه منذ أيام فقط،

وكأنه لم يأت بسنَّيْ أم العبد فقط، بل بكل شحوب الموت المتراكم في تلك المقبرة... وأمام دهشتهم لمنظر موميائه مد يده إلى جيبه ليخرج السنّين الذهبيين ويلقيهما أمام الجميع... أحدهم ركل ذهوله وابتسم ساخراً:

- مع هذا فقد خسرت...

ومع نطقه لكلمته الأخيرة طعنته النظرة المصوَّبة نحوه، فتابع متلعثماً:

- نعم... نعم... لقد أخللت بشرط الرهان وحملت سكيناً...

ولم يكد ينهي جملته حتى كان محمولاً بقبضتين صخريتين وعيناه تطلان عبر عينَي الخاسر على نيران روحه، ليسمع صوتاً أشبه بالفحيح:

- نعم... كان يجب أن أقتلك بتلك السكين...

ثم دفعه بقوة طرحته أرضاً وانصرف...

*

منذ تلك الليلة تغيرت حياته... فلعدة أيام بعدها أفزع أسرته بصراخه الليلي ورعبه اللامحدود من كوابيس كادت تخنقه... ثم اتخذ عادة النوم في البايكة بين الحيوانات ليلاً ليمنع أحداً من دخولها نهائياً حتى

الصباح... عندها انتهت الكوابيس بالنسبة إلى أسرته، لكن ما بدأ لديه كان مختلفاً جداً...

كانت الأشباح تهبط مع هبوط الليل كي تملأ رأسه بالصراخ وعينيه بالوجوه الشاحبة وأنفه برائحة الموت، وتتعمد مهاجمته كما فعلت في تلك الليلة محاولة قتله وتقطيعه إلى أشلاء، دون أن تجدي محاولاته للنوم أو للهرب منها بالتمشي في حوش الدار أو خارجه... إلى أن ساقته قدماه الهاربتان ذات ليلة إلى مقبرة البلدة... شعر بالخوف... لكن الأشباح التي كانت تتبعه طوال الطريق وقفت الآن في وجهه أشد بشاعة وأقوى صراخاً وأكثر شراسة، وكأنها تريد منعه من الوصول إلى المقبرة... وتذكر اللحظات التي قضاها هناك بعد معركته تلك حتى استعاد قواه الخائرة، فحاول التمسك بقشة الطمأنينة تلك، وراح يتقدم متحدياً ليزيد لغطُ الأشباح ويزيد إصراره، حتى اختفت حين وصل إلى باب المقبرة التي شهدت موت الأموات فيه... كان الباب مقفلاً بقفل جديد فبحث عن حجر لكسره في ضوء القمر، ثم فتح الباب ذاته ليسمع الصرير الصدئ ذاته، ثم لتهاجمه الرائحة والظلمة ذاتهما، وتخيّله لسماع دبيب الديدان القاضمة للآنية المفرَغة من أرواحها، لكنْ ليشعر على الرغم من

ترقبه المتوتر بالاطمئنان بعيداً عن أشباح الخارج... أخيراً وجد دواءه... أشباح الأموات تهرب من رميم أجسادها لتهاجم الأحياء هناك، فهنا إذاً يستطيع أن يقضي لياليه بهدوء وراحة بال... لهذا اقتنى منذ اليوم التالي قفلاً للمقبرة شبيهاً بالقفل الذي كسره، وصار يهرب من البايكة ليلاً دون أن يثير انتباه أحد، ويتسلل إلى الملجأ الآمن... إلى المقبرة التي صار يغلق بابها بعد مغادرته لها فجراً بقفله الخاص، ليفتحه مساء ويبات ليلته هناك بعيداً عن كل ذاك الخوف وكل تلك الكوابيس... وصار يتعين على أهل القرية مع كل ميت جديد أن يكسروا قفلاً على الباب مفتاحه ليس معهم، دون أن يعرفوا من وضعه...

ومرت الأيام والأعوام، دون أن يجرؤ على العودة للنوم في منزله، فقد صارت تلك المقبرة مكانه الآمن الوحيد الخالي من الأشباح، وتحول من طفل مسترجل إلى حكيم مفتقد للّغة في كل ما يتعلق بالموت والأموات، قليل الكلام، كاره لكل أصفر لامع، بارع في تقطيع اللحم وسلخ الجلود في محله الصغير في البلدة... إلى أن تزوج فأرعب عروسه التي عاشت منذ تلك الليلة همّ غيابه الليلي عنها دون تبرير، حتى اكتشفت سره الذي دأب على

إخفائـه أعـواماً، وصـار مـضطراً في كـل يـوم إلى سمـاع رجائها الذي لم يكن ليجرؤ على تحقيقه حتى من أجلها...

* *

فجـراً عـاد إلى بيـته متمنـياً أن يـضم إلى صـدره روحـاً تسوِّر روحـه مـن كـل الأشـباح الـتي تلاحقـه محاولـة قتله، لكـنه لم يجـد إلا نـساء مـتلفعاتٍ بالدمـوع يُحِطـن بأمنـية ميتة وسور محطّم...

والـيوم جاءتـه هـي ــ بهـية ــ إلى مـأوى أمـنه مكلّلـة بالبـياض علـى أكـتاف المـشيّعين عروسـاً يـزفها المـوت، لتقضي ليلة حبها الأولى معه...

المخاض

التقرير الذي أصدرته... بل فجّرته لجنةُ التحكيم فاجأ الجميع... بل صدمهم! إلا أنا... فقد كنت أتوقع شيئاً جنونياً كهذا! لكنه لكز ذكرياتي في خاصرتها، فراحت تجرجرني خلفها وهي تصهل جامحة إلى ذاك اليوم الذي قرأت فيه إعلان المسابقة في مؤسسة ثقافية مرموقة...

*

جائزة جديدة للقصة القصيرة تحمل اسم كاتب كبير لم أكن قد سمعت باسمه من قبل، ككل الكتّاب الذين اشتركتُ في مسابقات سابقة طُرِّزَتْ بأسمائهم! قفزتُ كالجرادة فوق شروط المسابقة إلى المبالغ التي ستقدَّم للفائزين الثلاثة... لا بأس بها... فلأكن

أحد الثلاثة هذه المرة أيضاً، كما كنت في الكثير من المسابقات السابقة!

*

عندما كنت طالباً في المرحلة الثانوية كنت أُجيد كتابة مواضيع التعبير المختلفة لأنال أفضل العلامات، وكنت أجد ميلاً كبيراً إلى دروس اللغة العربية والنحو والأدب... وأذكر أنني كتبت الكثير من قصائد الحب والغزل باسمي لحبيباتي، أو بأسماء أصدقائي لحبيباتهن، واكتشفت أن لكلماتي تأثيرَ السحر في قلوب الفتيات وعقولهن دون أن أعرف لهذا تفسيراً سوى خلل في عقولهن! لكن... بعد أن طرقتُ باب الحياة الواسعة لأدخل معمعتها، أقفلتُ ورائي باب الأدب، وتعوّذت بالعمل والكدّ من شيطان الشعر! وكنت أَعجب ممّن كان يغويهم ذاك الشيطان ليسيروا في ركابه على طريق لا تطعم خبزاً ولا تؤتي ثمراً سوى "وجع الراس" على حد تعبير أمي سابقاً، ثم زوجتي لاحقاً... إلى أن كان يومٌ قرأت فيه إعلاناً ملصقاً على جدار متداعٍ في زقاق لا أحد يهتم من المارين فيه بقراءة ما يُلصَق على الجدران! وتوقعت أن ملصِق ذاك الإعلان أراد الانتهاء من مهمته بأسرع وقت

ممكن، فراح يلصق إعلاناته كيفما اتُّفِق هنا وهناك كمن ينثر بذاره في الأرض البور وفوق الصخور! الإعلان كان عن مسابقة شعرية مطرَّزة باسم أديب كبير ممن أبلغتكم عنهم منذ قليل، وفوجئت بأن للمسابقة عائداً مادياً... صحيح أنه لا يساوي عُشْر عوائد جوائز "الموبايل" والاتصالات السخيفة التي درجت مؤخراً في التلفاز، لكنه كان مبلغاً مجزياً بالنسبة إلى مكافح مثلي بين وظيفة صباحية مرتّبها أشبه بساقيةٍ، الهدفُ من جريانها تشجير الصحراء، وبين أعمال مسائية متعددة يصح عليها اسم الإهانة أو المعاناة أكثر من اسم العمل!

في ذاك اليوم... وفي ذاك الزقاق... وأمام ذاك الملصَق المهمَل وقبل أن أبرح مكاني، قررت الاشتراك في تلك المسابقة! كل ما فكرت فيه في تلك اللحظة هو أنني يمكن أن أحاول، وبالتأكيد لن أخسر شيئاً! وحاولت... لأفاجَأ بعد أشهر بأنني كنت أحد الفائزين! بالتأكيد لم أعرف السبب، لكنني حاولت أن أُطَمْئِن نفسي وأواسيها بأن ما حدث ليس شيئاً خطِراً ولا مرضاً معدياً! وأوجدت لنفسي بعض المبررات، فربما كنت أمتلك موهبة مدفونة وجدَتِ التعبير عنها في تلك القصيدةِ _ إن صحّت التسمية – المكتوبةِ على عجل، وربما كان أسلوبي جديداً ليس فيه تأثر بأسلوب أيّ من الكتّاب الذين لم أقرأ لهم

بالطبع، مما أقنع لجنة التحكيم بإبداعي، وربما كان ضرعُ المعاناة – وما أضخمها وأضخم ضرعها – قد جاد لي بكل ذاك التميز، وربما...، وربما... المهم أنني منذ ذاك اليوم صرت أتعمد البحث عن إعلانات المسابقات دون أن أنتظر إلصاقها من قِبل شخص متعجِّل أو مهمِل في طريقي، فصرت أقصد المؤسسات الثقافية التي تُعنى بتلك الإعلانات لأقتنص واحداً منها! وبالطبع لم أحمّل نفسي عبء كتابة قصة أو قصيدة يوماً إلا بناء على إعلان جديد، فصرت أشترك في كل مسابقة تصل إليها يدي لأفوز فيها دون أن أجد ما يقنعني بأحقيتي في الفوز سوى تلك المبررات الواهية التي ظلت تراودني مع كل إعلان نتيجة، ولأجد أنني حصلت على فائدتين اثنتين من كل مسابقة خضتها... المكافأة المالية، والتعرف على اسم كاتب جديد كان يقال لي أنه كبير! ولَكُم أنتم أن تقدّروا أي الفائدتين هي التي كانت تعنيني أكثر! باختصار شديد... صار الاشتراك في المسابقات الأدبية أحد أعمالي الإضافية...

*

وأمام الإعلان الأخير لمسابقة القصة القصيرة الذي كنت قد بدأت الحديث عنه قبل أن أستطرد كعادتي،

قررت الاشتراك في تلك المسابقة! ولم أكلّف نفسي عناء البحث عن فكرة لكتابة قصة جديدة، فقد كانت الفكرة حاضرة في ذهني منذ أيام عديدة بانتظار إعلان جديد يدفعها للتلوّي ككلمات أفعوانية على ورق أبيض... فقبل أيام فقط من قراءتي ذاك الإعلان كنت قد رُزقت طفلاً يتحدى القمر في بهائه، وسأترك لكم أنتم أيضاً أن تستنتجوا أنه كان يشبه والده كثيراً...

عند دخول زوجتي المستشفى قرر الطبيب بناء على عدة اعتبارات طبية، لم أكن معنياً بفهمها، إجراء عملية قيصرية مستعجلة لها! وعلى الرغم من القلق الذي انتابني قبل العملية وأثناءها وبعدها على زوجتي وصغيري المنتظَر، إلا أنني شكرت الله كثيراً لأن الطبيب لم ينتظر المخاض ولم يؤجل إجراء العملية لو ساعة واحدة، فتلك الساعة – لو أنه انتظرها – كان يمكن أن... عذراً... ها أنا أكاد أكشف فكرتي في غير مكانها وأوانها!

بعد نصف ساعة من عملية زوجتي واطمئناني عليها، دخلَتِ المستشفى في حالة إسعاف امرأة شاحبة تتلوى ألماً وتئن متكئة على كتف زوجها... كان واضحاً أنها ستلد خلال ساعة أو أقل، فصراخها وأنينها كانا يدلان على أن للطلق لديها حماسةَ الغزوات الجاهلية... وبما أن عملية زوجتي استدعت بقاءها وبقائي في المستشفى حتى صباح

اليوم التالي، أي ما يقرب عشرين ساعة، فقد شهدْتُ، خلال هذه الفترة مع مخاض تلك المرأة، مخاضَ الفكرة في مخيلتي وولادتها! طبعاً لن أتحدث عن تفاصيل تلك الليلة التي قضيتها في قاعة الانتظار أو قرب زوجتي لأن هذا سيكون استطراداً طويلاً، بالتأكيد ليس غريباً عليّ، لكنني سأوفره – ربما – إلى قصة جديدة مع إعلان مسابقة جديدة! لكن الهام لقصتي هذه أن تلك المرأة التي دخلت بعد زوجتي – والحمد لله – إلى المستشفى ظلت تتلوّى وتتأوّه وتصرخ طوال الليل دون أن تنجب صغيرها... كان زوجها يجلس قربي لدقائق ليسمعها تصرخ:

- يا حسان...

فيهجم بجسده الضخم نحوها ليسندها في الممر ويضمها على مرأى من المنتظِرين ومن النساء المتجولات وقد أسندن ظهورهن وبطونهن بانتظار الولادة الوشيكة! ثم يرتفع صراخها ورجاؤها ليربت على ظهرها ويمسّد شعرها ويشجعها ببضع كلمات رقيقة، فتهدأ قليلاً ليعود إلى مجلسه منتظراً وقد كست شفاهَه رغوةُ شتائم مقذعة للمستشفى والأطباء الذين أهملوا زوجته ولم يعجّلوا في ولادتها! وقبل أن تجف الرغوة كانت زوجته تشتعل صراخاً من جديد:

- يا حسان...

ليعاود الهجوم نحوها... وهكذا، طوال الليل...

وحولي راحت تتسلل حذرةً تعليقات المنتظرين على المقاعد الخشبية القاسية وخصوصاً النساء:

- منذ بدء الخليقة والنساء ينجبن، دون أن يثرن كل هذه الجلبة!

وأسررت لنفسي تعليقاً على التعليق:

"فعلاً..."

فكانت تلك أولَ خطوة باتجاه فكرتي...

- لماذا لا تستلقي على أحد الأسرّة في غرفة بعيدة لتصرخ كما تشاء؟!

وهرولَتْ في خاطري الكلمة نفسها:

"فعلاً..."

وكانت تلك خطوةً ثانية... وتتالت التعليقات والخطوات...

- انظري إلى زوجها كيف يعاملها، مع أنه لا يبدو بهذه الرقة والليونة!

"فعلاً..."

- لابد أنها لم تنجب على الرغم من أنها تزوجت منذ زمن طويل...

"يجوز..."

وتقدم تعليق جديد ربما لم تسمع صاحبتُه التعليقَ السابق، أو ربما كان رداً عليه:

- لا بد أنها أنجبت له تسع فتيات من قبل، وهي الآن حامل بالولد المنتظَر...

وهممتُ بقول "فعلاً..." لكن... هنا أجد الاستطراد واجباً... فكيف عرفت تلك السيدة أن المرأة أنجبت تسع فتيات... تسعاً بالتحديد على الرغم من أن عمرها لا يزيد كثيراً على العشرين! فإذا فرضنا أن تسع فتيات يحتجن إلى تسع سنوات على الأقل لإنجابهن فستكون قد تزوجت وهي لا تزال طفلة، إلا إذا كانت قد أنجبت بناتها أشفاعاً... وهذا ما لم يحمله التعليق!

وفجأة... هنا... أبرزَتِ الفكرةُ رأسها، فرُحتُ أشدها برفقٍ وحزمٍ "دايةٍ" متمرّسة متمنياً أن تصرخ لأتأكد أنها حية... لا بد أن هذه المرأة تعاني من إهمال زوجها لها، فالقسوة والغلظة واضحتان على قسماته! لهذا وبما أنها ستنجب له الولد المنتظَر بعد "البنات التسع"، فقد راحت تستغل ألمها ولهفته لتنال منه هذا القسط من الحب والرعاية! وها هي تحاول أن تعرض حنانه وحبه على الملأ كي تؤكد للجميع ولنفسها أنها ذات أهمية بالنسبة إليه!

وخطر لي أن أتأكد، فرحت أراقب وجهها ووجوه النساء المحيطات بي... ولمحت ما أردت التأكد منه، دون أن أعلم إن كان موجوداً فعلاً أم أن رغبتي في رؤيته رسمته على تلك الوجوه! كانت تتسلل عبر زحام صراخها نظرات من الزهو والفخر نحو النساء المراقبات، بينما كان الحسد والغيرة يتجسدان على وجوههن شبحاً واضح المعالم على الرغم من محاولاتهن لإخفائه! وأجفلني سؤال تمنيت لو أنه لم يقفز تلك القفزة البهلوانية المرعبة في وجهي... هل صار الرجال على تلك الدرجة من القسوة والجفاء حتى باتت نساؤهن تحسد امرأة متهالكة مسكينة على عناق زوجها لها؟! واستحضرتُ في ذهني مرآةً رحت أستبصر نفسي فيها لفترة طويلة سابقة، وفوجئت بكائن لم يتسنّ لي الوقت منذ دهور لمراقبته! حقاً... منذ متى لم أعانق زوجتي؟! ولم أقل لها كلمات حب وغزل؟! منذ متى وأنا مسلوب الروح بين عملٍ صباحي وعملٍ مسائي وانكسارٍ روحيٍ وإنهاك جسدي و... و...؟! هل كانت أشباح الغيرة والحسد سترتسم على وجه زوجتي فيما لو وُجِدت الآن بين المنتظرات؟! هل كانت ستواصل الصراخ والتألم في محاولة لجذبي إليها فيما لو قُدِّر لها المخاض لفترة طويلة مثل هذه المرأة؟! قد تظنون في هذه المرة أنني عدت إلى الاستطراد، لكن اسمحوا لي أن أخيّب ظنونكم! فأنا ما

زلــت في صُــلب الموضــوع... مــا زلــت في لحظــات ولادة الفكـرة... نعـم... فعلـى الـرغم مـن شـعور المأسـاة الـذي رزح فـوق صـدري، أو ربمـا بسـبب هـذا الشـعور، رحت أنظر إلى تلـك المـرأة الملتـصقة بـزوجها بغـراء صـراخها... لـو كـنت مكانهـا لرفضتُ الـولادة وأمضيت حياتي في مخاض أبدي يقرّب إليّ زوجي كلما احتجت إلى لمسته... إلى عناقه... إلى قبلته... في هذه اللحظة صرخَت الفكـرة!

*

الآن بإمكـاني أن أعـود بكـم إلى وقفتي أمام الإعلان الأخـير لمـسابقة القـصة القـصيرة... قـررت الاشـتراك في المسابقة وكانـت الفكـرة حاضـرة... سـأكتب قصة امرأة حامـل يأتـيها المخـاض فترفـض أن تـضع صـغيرها مفـضّلةً آلامهـا الطـويلة كـي تكـسب قُـرب زوجهـا مـنها! لكـن طـريقتي المجـنونة في الـتفكير والاسـتطراد لطمـت وجهـي بفكـرة جعلتني أضـحك حتـى ظن بعـض المـارين قربـي في تلـك المؤسـسة الثقافية أن مسّاً أصـابني، فراحوا يتغامزون ويتهامـسون! تمالكـت ضـحكتي، لكـنني لم أسـتطع السيطرة على جماح تلك الفكـرة فانسقت وراءها!!

كنت أعتقد دائماً أن إمكانيات الواقع أكثر رحابة من الخيال، لكن ليس إلى هذه الدرجة! ومع هذا... قررتُ زيارة ذاك المستشفى للتأكد من كون تلك المرأة ما زالت تعيش مخاضها رافضة الوضع! ولم أناقش جنوني، بل اتجهت من فوري إلى ذاك المستشفى، لأجد الدنيا هناك قد قامت دون أن تقعد بسبب حيرة الأطباء أمام حادثة طبية غير مسبوقة انتشرت كالوباء بين حوامل المدينة! ورحت أسترق همسة من هنا وتصريحاً من هناك:

- لقد بدأت هذه الظاهرة منذ أيام فقط...

- امرأة استمرت في المخاض أياماً دون أن تلد!

- ولماذا لم يتدخل الأطباء؟!

- من قال إنهم لم يتدخلوا؟! لقد قرروا إجراء عملية لها لكنها رفضت وغادرت المستشفى على الرغم من استمرار مخاضها!

- وبعد تلك المرأة راحت تكثر مثل هذه الحالة!

- ومنذ ذاك اليوم لم تجرِ ولادةٌ واحدة!

- وانقطع رزق الأطباء... يا حرام...

- كما ترين... كل النساء هنا يعانين آلام المخاض ولا يستطعن أن يلدن!!

ورغبت هنا في التدخل لأقول:

" بل هن يتمتعن بالمخاض ويرفضن أن يلدن!!"

لكنني فضّلت الصمت تجنباً للسخرية، وحمدت الله لأن زوجتي وضعت صغيرنا قبل تلك المرأة التي نشرت في المدينة عدوى رفض الوضع! وأرجو أن تكونوا واثقين من أنني أعني وضعَ الجنين لا وضعاً آخر!

*

خلال عدة أيام تالية كنت قد كتبت القصة وتقدمت بها إلى المسابقة، متوقعاً أن لا ينجو الرجال من وباء مشابه لوباء المخاض! وقد أكّد لي توقعي التقرير الذي أصدرته لجنة تحكيم المسابقة ليفاجئ الجميع دون أن يفاجئني... فقد قررَتِ اللجنة إلغاء المسابقة بسبب ظاهرة غير مسبوقة أيضاً، إذ عجزَتِ اللجنة عن قراءة عشرات آلاف القصص المقدَّمة من معظم رجال المدينة للاشتراك في المسابقة، بعد أن كان يتقدم إليها على الأكثر عشرات القصص؛ غير عالمين أنه وباء جديد أصاب الرجال أسوة بنسائهم، ربما كنت أنا أول من صرخ ناشراً عدواه:

- يا حسان!!

عصافير...

الأقفاص

أخيراً تمكن من الدخول... بينما ظل أسعد ينتظره في الخارج...

كانت جرأة غير عادية أن يدخلا المنزل نهاراً، لكن تحريات أسعد ومراقبته أظهرت أن ساكني هذا المنزل البعيد عن الأنظار والمارة يخرجون صباحاً إلى أعمالهم أو مدارسهم، ولا يعودون إلا ظهراً... لهذا فقد قررا الدخول في الساعة التاسعة صباحاً بعد خروج الجميع، ولن تستغرق العملية أكثر من ساعة للبحث عما يريدان وللحصول عليه...

الستائر كانت تبوح بضوء الصباح الناصع، فبدت الغرف واسعة متألقة، مما بهر عينيه اللتين تعودتا على الغارات الليلية... نظر حوله فلم تلحظ عيناه إلا ما تبحث عنه عينا سارق... أدراجاً يمكن أن تخبئ في بطونها شيئاً

من المال، وخزانة قد تكمن فيها محارة تضيق باللؤلؤ والذهب، وتحف قد تكون على الرغم من صغرها كبيرة القيمة؛ فراح يثير صخب الأشياء في المنزل الهادئ ويبعثرها أرضاً باحثاً عن هدفه... وجد في أحد الأدراج علبة مصاغ ذهبي صغيرة، وفي ظرف صغير في خزانة الثياب وجد رزمة من الأوراق النقدية الحديثة، والتي قد تكون مسحوبة من المصرف للتو؛ فكومها كلها فوق أحد الكراسي القريبة لتنتظره حتى يُتم بحثه... وفوق رف من رفوف الخزانة العلوية مد يده كي يرمي بالثياب التي كانت مطوية بعناية، ومع الثياب ارتمى أرضاً ظرف ملون بدا مغرياً لسبر غوره ومعرفة ما قد يخبئه... انحنى أبو الخفة وتناول الظرف وأخرج ما فيه... للوهلة الأولى بدا ما أخرجه تافهاً وغير ذا قيمة لسارق مثله، فقد أشرقت في وجهه ابتسامات وعناقات مفعمة بالحب مثبتة على صور لا بد أنها تخص أصحاب المنزل... كان على وشك نثرها رمياً حين توقف أمام صورة التمع خيالها في ذاكرته... كانت ابتسامة محفورة في رأسه لامرأة يشع النور من عينيها، ويقطر الحنان من يديها اللتين لم يزدهما تقدمهما الملحوظ في العمر إلا رقة وعطفاً وخاتم زواج!!

انبثقت الدموع في قلبه فألهبته، وراح يحدق في طلعة ملاك عتب عليه كثيراً لأنه تركه عندما أخذت كثبان

الألم والحقد في قلبه تتناثر لتكشف عن بذور الحب والأمل... لأنه تركه فأهال بدلاً من الكثبان صخوراً لا تستطيع أعتى الرياح أن تزحزحها...

* *

كان لا يزال طفلاً متشرد الروح على الرغم من حبسهم لجسده في ملجأ للأيتام... الأيتام الذين كان يعيش بينهم ويتوق إلى أن لا يكون بينهم! لا بأن يجد أماً وأباً!! فحتى هذان الكائنان أسطوريا العطف والرقة بالنسبة إلى الأطفال حوله خبرهما؛ وخبر ضخامة الألم الذي لا يمكن أن يناله طفل إلا على أيديهما...

فكان يتسلل عبر النوافذ وفوق الأسوار ليهرب من الملجأ، كي يركض في المسافات التي لا تحدها الجدران العالية القاسية، وليحلّق مع الطيور التي تتحدى الريح وتحلم ببلوغ الشمس، وليمارس لعبته التي درج عليها مذ كان له أب وأم... التربص بالعصافير ليلتقطها بخفة كانت تدهش كل من يشاهدها، ليخبئها في جيوبه أو تحت كنزته أو في أكمامه، ثم ليطلقها أمام دهشة الأطفال مقلداً السحرة... لكنه وبعد كل هروب كان ينال توبيخاً وصفعاً وحبساً بين جدران تكاد لا تترك بينها

فسحة حتى للتنفس، كي يعود وبعد كل عقوبة إلى فرار جديد!!

وذات فرار عاد كما يعود دوماً إلى المكان الذي لا يعرف مكاناً سواه يعود إليه، ليجد في استقباله وجهاً جديداً... صبيّةً صدمته بابتسامة لم يرها يوماً على أي من وجوه الخفر القائمين على الملجأ... تحفّز مستعداً لانقضاضها عليه كما كان يفعل الآخرون، ومستعداً لضربها ورفسها وشتمها كما كان يفعل في كل مرة يقبضون فيها عليه... لكنها خاطبته ولأول مرة مستعملة اسمه الذي كان يظن أن هؤلاء القساة لا يعرفونه، أو أنهم استبدلوه بالأزعر أو الشيطان أو المتشرد أو... أو...

- أهلاً صفوان... لماذا تأخرت؟! قلقنا عليك كثيراً...

ومنذ تلك اللحظة تراجع شتاء المعاملة القارس في الملجأ ليحل محله ربيع الدفء والعطف والابتسامة... فأمام كل تصرفاته الطائشة، والتي راح يتعمد المبالغة فيها أحياناً، كانت تقابله بالابتسامة ذاتها مع نظرة لوم حانية... وأمام كل فرار كانت تستقبله بالترحيب وإبداء القلق على سلامته... بل إنها – ولأجله – اصطحبت الأطفال جميعاً في نزهات كثيرة ركضوا فيها كما لم يركضوا منذ احتبست خطواتهم بين الأسوار العالية،

وضحكوا فيها كما لم يضحكوا منذ صارت الوجوه القاتمة سدوداً في وجوههم، وشاهدوا فيها صفوان وهو يعرض مهارته في التقاط العصافير وإطلاقها الساحر، وكانوا في كل مرة يخبرون المربية الجديدة التي تجرأ العديد منهم فصار يناديها " يا أمي"، بهذه المهارة المدهشة التي يملكها، فكانت تطلب منه بكل رقتها أن يريها ما يستطيع فعله، لكنه كان يرفض ويقابل كل لطفها وحنانها بتجهمه وصمته ولامبالاته!! فقد علمته امرأتان من قبل أن لا يثق بشيطان ثالث يتنكر في زي امرأة!!

* *

الشيطان الأول كان أمه... صورتها تبدو له باهتة من خلال ضباب كثيف، فقد رحلت باكراً أو أجبرت على الرحيل حين كان في الرابعة من عمره فقط... لم يكن يذكر حادثة رحيلها، لكنه امتلأ بها عندما حشاها والده حشواً في رأسه الصغير...

" كانت خائنة سافلة... لهذا قتلتها!!"

كانت الكلمات كبيرة جداً أمام طفولته، لكن قبضة أبيه والنيران التي كانت تتوقد في وجهه، أفهمته

بـأن أمـه كـانـت شـيطاناً، وكـان لا بـد مـن إرسـالها إلى جهنم التي لا تستقبل بين نيرانها إلا الخطاة!!

وعلى الرغم من أن العديدين – لاحقاً – قصوا عليه قصة أمه مع والده بصور مختلفة كانا يتبادلان فيها سحنة الـشيطان، إلا أن الـصورة الأولى الـتي حفـرها والـده في معجونة عقله الطرية ظلت الأكثر ثباتاً ووضوحاً...

وبين الشيطان الأول والثاني تناوبت العديد من الوجوه الـتي تـشرد بيـنها في غـياب والـده مـسجوناً حيـناً ومختفـياً خلـف جـنون ألحقـته بـه خـيانة سـافرة وقـتل وحـشي حيـناً آخر... تلك الوجوه التي رفضته واحداً تلو آخر، بعد أن أرته مرارة الإذلال والقهر والنبذ...

وعـاد والـده لإنقـاذه!! أو هـذا مـا ظنه قبل أن يعرف أن والـده عـاد بصحبة زوجـة جديـدة، ادّعـوا أمـام حرمانه أنها سـتكون لـه أمـاً جديـدة، فـصارت بالنـسبة لـه الـشيطان الثانـي!! وإذا كـان قـد أدرك الوجـود الـشيطاني لأمـه مـن خـلال غيابها، فإن هذه المرأة فرضت هالتها الشيطانية من خلال حضورها!!

*

كـان والـده قـد فـرض عليها إقامـة جـبرية في منـزل لا تـبرحه، وراح يعـد علـيها أنفاسـها وخطـواتها ويتربـص

بنظراتها وابتساماتها، خوفاً من أن تكرر ما أتته المقتولة قبلها؛ فراحت هي تنتقم من جبروته وظلمه بصب جام غضبها وقهرها على ضعف ابنه واستكانته، الذي لم يكن قد تجاوز الثامنة من عمره بعد، لتظهر في حضوره كل أكاذيب العطف والرأفة التي لم يكن الأب يأبه بها، بعد أن صار ولده جزءاً من أثاث المنزل لا أكثر...

ومضى عام وأكثر، وصار الأب يطالب زوجته بطفل ربما شعرت بعجزها عن أن تنجبه، فراحت تبحث عن العيب فيه هو، وما دام قد أنجب من سابقتها فلن يكون بحثها مجدياً ما لم...

- ماذا لو أن الخيانة لم تبدأ يوم اكتشفتَها؟!!

ودون أن يعلم بأمر الأفعى التي حاولت دسها في دماغه سألها:

- كيف؟! وماذا تعنين؟!

فتابعت لهجتها مع إضافة نظرة عميقة الخبث وجّهتها نحو الولد اللاهي في الخارج:

- ماذا لو أنها بدأت قبل خمسة أعوام من اكتشافك لها؟!!

واندست الأفعى...

*

ما يذكره أن والده تحول فجأة إلى صافع رافس شاتم لجسده الغض بعد أن كان لا ينتبه لوجوده إلا لماماً، وما لا ينساه تلك الابتسامة التي كانت زوجة أبيه تلبسها مع كل نجاح لها في تحريض والده ضده...

أمضى على هذه الحال نحو عامين، وحين ضاقت سنواته الإحدى عشرة بتحمل هذا العبء قرر الفرار؛ لكن والده كان قد قرر قبله أن يطرده ليطرد معه شكوكه وهواجسه كي يرتاح من عبء آخر آلمه طوال عامين!!

كان قد تحول إلى شبح من عظام بائسة حين اقتاده بعض جيرانه إلى ذاك الملجأ كي يحموا طفولته من التشرد، ليجد بين تلك الجدران العارية الباردة تشرداً أشد مرارة، وليجد بدلاً من أب متوحش وزوجة أب حاقدة عدة رجال ونساء لا يختلفون عنهما إلا في الأسماء...

* *

الصور بين يديه كانت ملتقطة حديثاً، فراح يفتش بعينيه عن صورتها يوم كان يريد أن يناديها " يا أمي" فيمنعه خوفه من أن تتحول إلى شيطان ثالث! ولمحها في إطار لامع كحضورها خلف زجاج رقيق كابتسامتها،

عروساً تزدهي بطرحة بيضاء... هي ذي يوم فارقته لأنها ستتزوج...

* *

يومها استيقظ باكراً... تسلق الأسوار التي اعتادت فراره عبرها ومضى...

بعد ساعات تجمع الأولاد كلهم حولها يودعونها والدموع تغرقهم وتغرق أجمل أيامهم في الملجأ البارد... وسمعت منهم نداءهم اليائس " يا أمي" وكأنهم يفقدون أمهاتهم مرة أخرى!! تمنت لو أنها تستطيع البقاء من أجلهم... من أجل طفولتهم، لكن حياتها تنتظرها بعيداً عنهم... في مدينة أخرى... مع رجل تمنت لفرط حبها له أن لا يكرهوه لأنه أخذها منهم...

بحثتْ عن صفوان:

- أين صفوان؟!

أرادت أن تقبّله وتشد على يده قبل أن تغادر... أرادت أن تقول له أنها تحبه حتى دون أن يبادلها كلمة أو ابتسامة! لكن صفوان كان قد فر من وداعها... من ألم وداعها...

تبعها الأطفال جميعاً على الرغم من تهديدات المربيات الأخريات لهم إذا تبعوها، حتى أوصلوها إلى البوابة التي – بانغلاقها خلفها– قسمت حياتهم أو قصمتها... وقبل أن تستقل السيارة التي كانت بانتظارها شاهدت المشهد الذي ظلت طوال سنوات حياتها التالية تتذكره بحنين وألم...

كانت تهم بفتح باب السيارة حين سمعت من خلفها نداء لطالما تمنته حتى يئست من سماعه:

- يا أمي...

نظرت وقد اعترتها الدهشة لترى صفوان بشعره الأشعث وقامته القصيرة النحيلة وثيابه المتسخة بآثار الفرار وملاحقة العصافير... فتحت ذراعيها داعية إياه للارتماء على صدرها... تقدم خطوة... خطوتين... ثم توقف ورفع يديه اللتين جاهدتا منذ الصباح لتحضير هذه اللحظة، لتنطلق العصافير من أكمامه التي وسّعها البؤس عابرة قرب دهشتها ودموعها المتفجرة، مبعثرة حرية الطيور مع أرياشها فوق عيون الأطفال المسجونين خلف بوابة حديدية كي يصرخوا ويهتفوا ويهزوا بقبضاتهم الصغيرة حديد البوابة رغم ما ينتظرهم جزاء سلوكهم هذا...

كان الطفل لا يزال رافعاً ذراعيه شاخصاً نحو أم ما زالت تدعوه إلى ضمة وداع، عندما لامست العصافير السماء، ليتحرك تمثاله هارباً من كل العيون التي ما أراد لها أن ترى دموعه...

ذاك اليوم كان آخر عهده بالملجأ...

طار مع عصافيره التي أطلقها كأنه يريد أن يحتفظ لنفسه بمذاق الحنان الأخير... بمذاق الأمومة التي حُرمها... لكن الأقفاص تتربص بالعصافير في كل مكان، فالتقطه قفص الشارع الذي تعذّر عليه مغادرة حدوده لاتساعه لا لضيقه، وفيه تعرف إلى أسعد وإلى أبي الجروح وإلى الزعيم، وفيه ما عادت الخفة في التقاط العصافير تكفي للحياة وللبهجة، فتعلم الخفة في اقتحام البيوت وسرقتها...

* *

كان غارقاً في أحلامه أمام صور أم لم تتحول إلى شيطان كسابقتيها، عندما انتشله نداء أسعد المحذر:

- عجّل يا أبا الخفة... لماذا تأخرت هكذا؟!!

استجمع مزق انتباهه فتذكر ما أتى من أجله... نظر حوله مودعاً لمكان اشتم فيه رائحة الحب الذي أضاعه

منذ خمسة عشر عاماً... وفي صدره الذي أشعله بالدفء تسارعُ النبض، دسّ أثمن ما وجد في المنزل وحرك تمثاله هارباً من كل الأشياء التي ما أراد لها أن ترى دموعه...

* *

- ألن تعطيني نصيبي من هذه الغزوة؟!!

تحسس غنيمته المخبأة في صدره وأجاب:

- لم أجد ما يستحق السرقة...

وقفز أسعد مستنفراً:

- كيف؟!! وقد كنت متأكداً من وجود المال والذهب...

فردّ أبو الخفة بالبرود واللامبالاة ذاتهما:

- فاذهب وفتش بنفسك إذاً...

ولأنه لم يكن أهلاً لمواجهة نوبة غضب من أبي الخفة، ولأنه واثق من أن أبا الخفة لم يأكل نصيب أحد ممن شاركوه في عملياته من قبل، ولأنه لا يستطيع العودة للتأكد بنفسه، فقد أسبل أسعد أذنيه مجبراً على الرضا أمام صمت أبي الخفة الخانق...

*

أصحاب المنزل عادوا إليه ليجدوا الباب الرئيسي مكسوراً والأغراض مبعثرة...

اندفعوا بهلع يطمئنون على نتاج شقاء العمر ليجدوه مكوماً بإهمال على أحد الكراسي مصاغاً ذهبياً ورزمة نقود ، دون أن يلحظوا لفرط دهشتهم غياب إطار لامع تطل عبره ابتسامة رقيقة لعروس تزدهي بطرحة بيضاء...

العصفورة

الآن طردت كابوساً جديداً قبل أن يبدأ ، وها أنا في غرفة منفردةٍ تمنع حتى الهواء من أن يعبث بي... هنا أستطيع أن أشعر بالدفء... بالأمان... أن أنام ملء جفوني وأنسى... هنا لا تزورني العصافير... لا ترمي حبائلها المخادعةَ حولي... لا تعدُني وتمضي...

* *

كان لابد لي كي تحملني حقنهم ومهدّئاتهم وشتائمهم المكظومة إلى جنّتي المنفردة هذه من أن أصرخ... أن أضرب أبوابهم بقبضتيّ الناحلتين... أن أتشاجر مع مجنونٍ يقاسمني لقمة الذل... أن أشتمهم... أن أتّهم أمهاتهم بالبغاء... ونجحتُ في الوصول إلى ما جهدت

للوصول إليه... وتذوقت لذة النجاح حتى في الاستحواذ على ظلامٍ مجدب إلا من رائحة الجنون المستوحش!!

* *

لابدَّ أنها زارتني في مثل هذا الوقت من السنة... منذ عام أو منذ أعوام... لا أعرف بالضبط، ففي عيشي هنا يلتصق اليوم بالسنة ويمضيان متعاهدَين على سلبي عمري... عمري؟!! كم أشتاقُ انتهاءه مع كل ما حمله لي من ألم مشاكس!...

فجأةً ودون سابق إشارة دخلتْ من النافذة الضيقة المفتوحة قرب السقف... أقامت الدنيا وأقعدتها داخل رؤوس أخوتي في الجنون، فراحوا يقفزون خلفها من زاوية إلى زاوية، ومن جدارٍ إلى جدار، بينما التصقتُ على سريري أراقبها بعينَي طفلٍ اكتشف طريقة للطيران، ناسياً ما صنعه بي الطيران ذات يوم...

هكذا دخلَتْ إلى حياتي... من حيث لم أنتظرها... من فجوةٍ مؤلمة في جدار الروح كنتُ أبحث عمّن يصلحها لأرتاح...

كنت أرى العالم منهاراً، يمشي على رأسه... يغزوه الجنون، وخلاصه في العدم، إلى أن ساقني صديقٌ كرهته لشدة وفائه نحو عيادة ذاك الطبيب عنوةً... دخلت العيادة مفكراً في أية طريقةٍ تسمح لي بالهرب من براثن نظرياته العقيمة في علم النفس... فكرت في تحطيم العيادة فوق رأسه، أو بالقفز من النافذة إلى ذاك الفضاء الشاسع الذي افتقدته في ضيق العالم المترامي... وعندما التقيت بها هناك ما عدتُ بحاجة إلى طبيب... شفيت... تعلمت الطيران حقاً، وطرتُ في فضاء الحبّ اللامحدود...

روحها كانت مكسورةً أيضاً، ووجدَتْ في حضوري هناك – كما وجدتُ في حضورها – ملجأ يحميها من مباضع التحليل النفسي والصراحة المخادعة مع رجلٍ لا يصلُ عبر مريضه إلا إلى أمراضه هو ليتّهم بها سواه!..

في هذه اللحظة خرجتُ من شرنقة حاكتها حولي سنوات القهر... خرجتُ من فشلٍ حتى في إتقان الفشل ليكون كما يجدر أن يكون... خرجتُ إلى حياةٍ جديدة...

* *

صرت أنتظر إطلالتها من تلك النافذة الضيقةِ كل يوم، كما كنت أنتظر إطلالة تلك المرأة المكلَّلة بالحزن

حتى أسميت تلك المرأةَ بالعصفورة، وأوشكت أن أسمي تلك العصفورة باسم تلك المرأة...

كانت تماماً كهذه العصفورة... تأتي فجأة دون موعد... تقتحم روحي أجمل اقتحام... تحلّق في أرجائها... تزقزق... ترفرف بكل جمالها وأنوثتها... تملأ رئتيّ بنسائم السعادة والحرية يدفعها جناحاها نحوي لأنتشي وأتنفس من جديد بعد أن كدت أختنق...

* *

دخلَت من النافذة ذاتها في كل يوم، وخرجَت منها في كل يوم... اعتاد الجميع على حضورها وأهملوا مطاردتها والصراخ في إثرها... نسُوا أمرها تماماً... إلا أنا!.. ظل لحضورها الوقع الأول ذاته... كنت أنتظرها بفارغ الصبر... صار لحياتي هنا هدفٌ عظيم... أن أراها... أن أستعيد حياتي التي فقدتُ، على الرغم من أن أولئك الحمقى كانوا يظنونني حياً ويسمون حالتي اكتئاباً... كانت رغبتي المجنونة في الموت الدليلَ الوحيد على أنني ما زلت حياً!!

في كل يوم كانت تعدُني بالعودة غداً وكانت تعود... إلى أن كان غدٌ لم تعد فيه...

بـالأمس كـانـت هـنـا... جلـسَتْ علـى هـذه الأريكـة... شربَتْ فنجان القهوة وما زال ينتظرها كي تقلبه كعادتها لتقرأ في خطوطه الحالكة أملاً ناصعاً... لكنها كانت مستعجلة... قبّلتني على عجَل... رفعت يدها... حرّكت أصابعها مودّعةً، وكنت أنظرُ بشغف إليها وهي تبعثر الحب والنور في أرجاء عالمي... تشبثتُ بيدها كما كنت أفعل كل يوم... هتفَتْ أصابعي الضاغطةُ على أصابعها:

- ظلي معي...

تبسمَتْ وانسلَّتْ كالشعاع... عبر النافذة الضيقة ذاتها! مرفرفةً مزهوةً بحريتها، مخلّفةً في جدار الروح فجوةً أشد إيلاماً من تلك التي أصلحتها...

* *

ظللتُ منتظراً أياماً... بدأت أتهدم... أين غابت؟!! لماذا تركتني وحيداً؟!! أغلقتُ كل الأبواب... بكيتُ... صرخت... ثم انهلت على الجدران ضرباً بيديّ... برأسي... بقدميَّ... رأيت دماءَ الجدران تلتصق بجسدي... امتدَّ ألمها إليّ... خافوا أن أحطم الجدران فحملوني إلى هذا المصح... الحمقى... ظنوا أنني صرت مجنوناً، أو صرتُ أكثر

جـنوناً... وانطـويتُ في ثياب الألم وهـدأت... بـل هدّؤونـي... أطفؤوني... إلى أن جاءتني هذه العصفورة وأعادتني إلى تلك العـصفورة... لكـن هـذه العـصفورة أيـضاً رحلـت كـتلك العصفورة...

لم أصـدق أنهـا ألقـت بنفـسها أمـام تلـك الـسيارة لتموت... كانت قد شُفيتْ... مثلي تماماً... كانت دوائي وكـنت دواءهـا... فلمـاذا تقـتلُ نفـسها؟! لتقـتلني؟! لتثـبت فشلي الجديد في أن أكـون إنساناً؟!! لتبتر أجنحةً أخذت تنمو في روحي باتجاه الطيران إلى جانبها أبداً؟!!

قالوا إنّ الخريف أتى... لماذا أتى؟! وإن الطيور تهاجرُ... لماذا تهاجـر؟! وإن عليّ الانـتظار... آه... مـا أجمـل أن ينتهـي الانتظار بعودتها!.. لكـنها لـن تعـود ، فهل يعودُ الموتى؟! بل سـتعود... لأن الـربيع يعـود... وسـيأتي بهـا مـن هجـرتها البعيدة...

حلمـتُ بهـا تلـجُ النـافذةَ... تبـسمتُ أمـام الحلم كـما لم أفعـل أمـام الواقـع وانتظـرْتُ... سـيعود الـربيع... سـتعود إلـيّ الحياة بعودة عصفورتي... وعادت!..

نعـم عـادت... دخلَـتْ من النافذة ذاتها... أثارت العاصفة ذاتهـا... بيـنما التـصقتُ علـى سـريري أراقـبها... محـاولاً اكتـشاف طـريقةٍ للطـيران... لكـن الأجـنحة المبـتورة في

روحي لاحت لي مخضبة بألم جديد... شعرت أن سعادتي المنتظَرة بقدومها تحولت إلى كابوس مرعب... عادت إليّ كل آلامي دفعةً واحدة... تشبثتْ بي كخيوط العنكبوت... صرختُ:

- لا أريدها أن تعود لأن الخريف سيعود وسترحل ثانيةً...

بكيت... ضربتُ أبوابهم بقبضتيّ الناحلتين وجدرانهم برأسي... أدميت الجدران وأيقظتُ جنون المجانين إلى أن أيقظوني من كابوسي وحملوني إلى غرفتي المنفردة بعيداً عن عصفورةٍ ستعدني بأن تشفيني ثم ستمضي وقد خلفتني حطاماً...

* *

هنا... في غرفتي المنفردة... أستطيع أن أشعر بالدفء... بالأمان... أن أنام ملء جفوني وأنسى... أو أتناسى...

حارس العصافير

انتهت مناوبته الطويلة، فعاد مع سيارة الدورية إلى المقر الرئيسي لعمله ليخلع ثياب العمل الرسمية كأنه يقشر موزة، ويرتدي قميصه وبنطاله المنتظرين منذ الأمس في خزانته الخاصة...

منذ سنوات كان يغادر عمله بالثياب الرسمية، لكن الملل من ارتدائها من جهة، وشعوره بأن السلطة التي تعطيه إياها أثناء ساعات عمله تتضاءل خارج ساعات العمل من جهة أخرى، جعلاه يتوقف عن ارتدائها خارج ساعات العمل... كان يحس بالنشوة عندما يجد نفسه قادراً على التهديد بمحاسبة المخالفين ليرى ذاك الخوف في عيونهم ويسمع كل كلمات المراضاة والاستجداء تُسفَح أمامه، وكان يشعر بالنشوة أكثر وأكثر وهو يظهر تسامحه وعطفه لينال جزاء مروءته مبلغاً كان الناس يسمونه

– دون دراية بحقيقته – "رشوة"... وبعد العمل لم يكن يشعر بتلك النشوة لأن المحيطين به كانوا يعلمون أنه ليس مخوّلاً للمحاسبة ولا للتسامح! صحيح أنهم كانوا يظهرون اللطف والاحترام له خوفاً من بطشه في ساعة تعود إليه فيها سلطته، لكنهم كانوا ينفرون مسرعين تحاشياً لمزيد من الاحتكاك بخشونته!

توجّه ماشياً نحو كراجات مدينته الصغيرة حيث يقيم مع أسرته، لامساً بيده ورقة يانصيب تنام منذ الأمس في جيبه بعد أن اقتنصها من يد أحد السائقين وكان قد اشتراها للتو...

"لا بد أن النتائج قد أُعلِنت مساء الأمس... فلا بد لي من البحث عنها اليوم..."

وراودته قشعريرة أمل...

عبَر شوارع كثيرة ماراً بين زحام السيارات غير ملتزم بمعابر المشاة ولا بالإشارات الضوئية موجّهاً أصابع الوعيد وبعض الشتائم نحو السائقين الذين يحاولون عرقلة عبوره الشارع، حتى وصل...

دخل كراجات مدينته... كانت خاوية إلا من أتربة وأكياس ونفايات متطايرة في الاتساع المحاط بسور سخّمته سنوات الإهمال... نظر نحو الشارع المزدحم الذي

غادره للتو... هذا الكراج صورة عن مدينته تلك... نائم مثلها في وقت تعج فيه الأماكن الأخرى بالحركة والنشاط! عليه الانتظار إذاً... أولاً انتظار قدوم حافلة ستتجه إلى تلك المدينة المقفرة، وثانياً انتظار أناس يكفل عددهم للحافلة الانطلاق... لهذا فقد قدّر أنه سيقف هنا ساعة على الأقل، فقرر الخروج إلى حيث الزحام والضجة ليتسكع قليلاً حتى يقترب موعد رحلته التي لم يكن لها موعد أصلاً!

خرج واضعاً يديه في جيبيه متحسساً الورقة نفسها مدندناً لحن أغنية سمع العديد ممن ينعتونها بالهابطة على الرغم من أنها كانت صاعدة كالصاروخ في سماء الشهرة والفن، دون أن يجد تفسيراً لمثل هذه المفارقة!

وعلى يساره، بعد مسير دقائق قليلة تعمّد خلالها، على غير عادته، أن يظل ماشياً على الرصيف بعيداً عن عبور الشوارع، رافقه سور حديقة لم يتذكر أنه مر بها من قبل، لكنها راحت تغريه بدخولها... ولم يقاوم الإغراء... فساعات الصباح تأتي إلى الحديقة بالكثير من الناس الذين يرغبون في المشي أو الركض، وبالتأكيد سيكون الكثير منهم من النساء اللواتي يرتدين ثياباً... لم يجد وصفاً مناسباً لتلك الثياب، فتعمّد إنهاء الفكرة عند

بـوابة واسـعة عبَـرها إلى الـداخل باحـثاً بعينـيه عـن مـا لا يوصـف مـن فتنة وجمـال، فـشعر للحظـة شعوراً مبهماً بأنه عبَـر مـن عـالم إلى عـالم آخـر! سـار في الطـرقات الـضيقة المحفوفة بنـباتات مختلفة الأشكـال والأحجام دون أن يجد شـيئاً من مبتغاه، وتمنى أكثر من مرة وهو يمر بين نباتات كثيفة تخفـي مَن يمـر بينها عـن كـل مَـن في الحديقـة أن يحظـى بـصبيّة مـسرعة، كـي يـستوقفها ويـسألها عـن الـساعة أو عـن قانـون الـسير مـا دام يعـرف فـيه الـشيء الكـثير أو حتـى عـن أسـعار العملات، حتى يملأ عينيه من قـوامها وجمالها! لم يخطـر بـباله أن تفـزع أو أن تبـتعد، أو حتى أن تمانع التحدث معه...

"فهـو مثال للوسامة والظُرف، ولا توجد امرأة يمكنها مقاومة سحره..."

لكـنه لم يحـظَ بـتلك المـرأة أو بغيرهـا... وفي فسحة في وسـط الحديقـة اسـتقرت فـيها بحـرة مـاء محاطـة بعـدد مـن النـوافير، لفـت نظـرَه رجـلٌ خُيِّل إليه أنه الرجل نفسه الذي سـلبه ورقـة اليانـصيب بـالأمس، فهـو لن ينسى عينيه اللتين كـادتـا تطفـران دمعاً وغيظاً، لكـنّ هذا الرجل مختلف في هيئـته تمامـاً، فهـو أشـعث بثـياب مترهلـة... كـان يحمـل كيـساً ويقـترب نحـو مـرج الأعـشاب الخـضراء... وكـي

يستطيع مشاهدة ذاك الرجل الغريب ربض على أحد المقاعد وشغّل حواسه بكامل طاقتها لمراقبة الرجل الذي نبع فجأة قرب البحرة كأن إحدى نوافيرها قذفته!

ذاك الرجل فتح الكيس الأسود ومدّ يده ليحتفن منه فُتات الخبز وينثره على الأعشاب... كرر هذا إلى أن فرغ الكيس، فحمله وعاد به نحو بحرة الماء... ملأ الكيس بالماء وعاد إلى الخبز ليهرق الماء فوقه ويبلله... طوى الكيس كيفما اتفق ودسّه في جيبه الممزق ليبدو الجيب منتفخاً بما فيه، ووقف منتظراً أمراً ما وقد ارتسمت ابتسامةٌ على شفتيه! بعد لحظات رفرفت غيمةُ عصافير حول الخبز المبلل ثم حطّت فوقه، واتسعت ابتسامة الرجل وهو يرى شجار العصافير ورفرفتها ويستمع إلى زقزقتها... فجأة نفرت العصافير وطارت... نظر المراقب الرابض حوله باحثاً عن ما أثار الرعب في جمهرة التجاذب والتنافر فلم يجد، وعاد ينظر نحو الخبز المبلل ليرى السبب ينبثق من بين نبتات قصيرة قريبة! كان جرذاً ضخماً يقترب متمايلاً يميناً ويساراً... ولم يكد الجرذ يصل إلى الخبز ليتناول بعضه حتى هجم رجل العصافير باتجاهه طارداً... العصافير التي كانت لا تزال تحوم حول المكان ابتعدت أكثر خوفاً من صراخ الرجل ومن يديه الملوّحتين... وابتعد رجل العصافير مطْمئناً إلى فرار الجرذ لتحيط بالمكان

طمأنينة جذبت العصافير ثانية نحو الخبز لتحط فوقه مكرّرةً مشهد الفرح السابق بطعام صباحيّ لذيذ... وفجأة تكرر الفزع وتكررت الرفرفة الهاربة، وظهر الجرذ متهادياً وراح يلتهم الخبز من جديد! تأخرَتْ في هذه المرة استجابة رجل العصافير كأن فكرةً لجمته، لكنه هجم فجأة نحو الجرذ من جديد مفجّراً قنبلةَ صراخ ومبعثراً للهواء الراكد بيديه الغاضبتين... هرب الجرذ ثانية وساد سكون جديد، لكنه كان أثقل من سابقه... وعادت العصافير... وهكذا راح المشهد يتكرر مرة بعد مرة أمام المراقب الرابض... ولو أن امرأة خرجت من أمنياته لتضمه إلى صدرها في تلك الدقائق، لَدفعها عنه بعصبية غير مكترث لجمالها ومفاتنها ولجسدها البضّ المكشوف من هنا وهناك، كي يتابع المشهد الذي لم يعرف سبباً لانجذابه السحري نحوه! وفي كل مرة كانت استجابة رجل العصافير تتأخر أكثر فأكثر، لتظهر على المراقب الرابض ردود فعل راحت تختلف بين مرة وأخرى... فقد بدأ استجابته لما يراه بابتسامة ثم بتشوق لمعرفة ما سَيَلي، ثم بشفقة على رجل العصافير وعلى عصافيره، ثم ومن حيث لم يدرِ بحقد على ذاك الجرذ! وبعد تصاعد المشهد وتأخر استجابة رجل العصافير طويلاً كأنه لن يدافع عن عصافيره وسيترك طعامها نهباً للجرذ السارق، وجد نفسه

يترك مربضه فوق مقعد الحديقة ويهرع صارخاً ملوّحاً بيديه ليطرد الجرذ وينتظر العصافير التي عادت تقترب شيئاً فشيئاً منه، أو بالأحرى من الخبز المبلل! عاد ليجلس مكانه مستمتعاً بمنظر العصافير المتراشقة بزقزقاتها العصبية، لكن الجرذ ظهر من جديد... نظر حول مقعده فلم يرَ رجلَ العصافير، كأنه ترك له مهمة إطعامها وطرْدِ الجرذ، فشعر بالخجل من تصرفه المجنون قبل قليل، ولمح في عينَي الجرذ الناظرتين نحوه سخرية كاوية، بل ولمح ابتسامة شامتة...

"هل صرتُ مجنوناً مثل ذاك الرجل؟! هل يمكن أن ينتقل الجنون بالعدوى؟!"

أشاح بنظره عن الجرذ وعن العصافير ونسي كل شيء للحظات وهو يحملق في سماء بعيدة زرقاء، لكن فضوله عاد بعينيه نحو الجرذ فلم يجد جرذاً ولا فتات خبز ولا عصافير! لم يحاول التساؤل أين ذهب كل ذاك المشهد... المهم أنه شعر بالراحة... الآن يستطيع معاودة البحث عن فاتنة يملأ عينيه بجمالها ويحلم بضمها وتقبيلها و...

مرة أخرى، مثل حلم مزعج، ومن حيث لم يدرِ، وجد إلى جواره رجلاً كاد يجزم بأنه رجل العصافير نفسه لولا

اختلاف ثيابه وطول شعره وذقنه... قرر في تلك اللحظة النهوض للسير بعيداً أو للعودة إلى كراجات مدينته وانتظار الحافلة هناك، لكن ابتسامة الرجل الغريب إلى جانبه صدمته:

- هل ترغب في شراء ورقة يانصيب؟!

تمالك خوفَه...

"ما الذي جرى لك؟ ليس في هذا الرجل ما يخيف..."

وتذكر ورقة اليانصيب النائمة في جيبه منذ الأمس:

- لا... شكراً... لكنني أريد أن أتأكد إن كانت هذه الورقة التي معي رابحة أم لا...

وراح يبحث في جيوبه عن ورقة الحظ الذي ما كان ليأتي منذ أعوام واظب فيها على سلب الكثيرين أوراقاً مثلها...

- لا بد أنك مرتبك...

ومد الرجل الغريب ورقة عليها أرقام الحظ الرابحة، فتناولها رجل الحظ الهارب ناسياً مواصلة البحث عن ورقته ناظراً في عينَي الغريب متسائلاً... ليضيف الغريب:

- أعني بسبب ذاك المجنون...

وأشار نحو المشهد الذي لم يعد موجوداً...

- وما أدراك؟!

سأله بعصبية...

- إنه حارس العصافير كما يظن! يأتي إلى هنا منذ أعوام لإطعامها، فلا يحظى إلا بإطعام الجرذان!

وانساق خلف الحكاية كمنوَّم بأنغام مزمار سحري، فسأل:

- ولماذا لا يبدل هذا المكان؟! أليست العصافير موجودة في كل مكان؟!

- بلى... لكن هذا المكان مكانه! فلا يمكنه الابتعاد عنه...

لم يفهم رجل الحظ الهارب سر هذا الالتصاق بهذا المكان، لكن الغريب تابع:

- وحتى إن استطاع، فلكل مكان عصافيره وجرذانه!!

في تلك اللحظة، وبعد أن كانت قد توقفَتْ عن البحث، أمسكت يدُ رجلِ الحظ الهارب ورقة اليانصيب في جيبٍ بحثَ فيه أكثر من مرة فلم يجدها، كأنها كانت تهرب من يده الباحثة عنها كضرير! أخرج الورقة وراح يقارن أرقامها بالأرقام الرابحة دون أن يتعثر أي منها

ولو برقم مساقب واحد... شعر بإحباط جديد وبرغبة في تمزيق الورقتين معاً، لكن سلسلة المفاجآت التي بدأت مذ دخل إلى الحديقة المجنونة زادت حلقةً جديدة، حين ظهر أمامه رجل مدّ إليه يده بورقة يانصيب دون أن ينبس ببنت شفة... أدرك أن هذا الرجل المسنّ يريد مثله أن يعرف إن كانت ورقته رابحة أم خاسرة، فمد يده بورقة النتائج التي كانت معه نحو رجل اليانصيب ليناوله إياها، فلم يجده، كأنه ذاب أو تبخر! تلفت حوله والحيرة والدهشة تتنازعان عقله:

"أين مضى؟!"

وتقدمت يد الرجل المسنّ منه أكثر دافعة بالورقة لتفض الاشتباك المدوّي في رأسه، فتناول الورقة من الرجل المسن وراح يمررها على الأرقام الرابحة بدءاً من الجوائز الصغرى، وقد أيقن أن حظ هذا المسكين لن يكون خيراً من حظه هو...

ومرت الورقة بعشرات الأرقام دون أن تتوقف أو تخفف سرعتها لاشتباه بالربح، لكن فراملها صرخت ذعراً أمام الرقم الأكبر! أغمض عينيه وفتحهما أكثر من مرة غير مصدِّق ما رأى... إنها الجائزة الكبرى... إنها الملايين... ازدرد صرخة كادت تقفز من جوفه ورفع رأسه

نحـو الـرجل المـسن، فلمـح في ملامحـه بائـعَ أوراق الحـظ بهيئةٍ وثيابٍ وسنٍ مختلفة! ارتعشت يداه بالأوراق الثلاث في يده، وارتعش قلبه خوفاً وهو يُقْدِم على ما خطر في باله كالـتماعة الـبرق... كـساحر متمـرس، اسـتبدل الـورقة الـرابحة بورقـته الخاسـرة دون أن تفـارق عينـاه ذاك الـوجه المغضَّن الصامت للرجل المسن، ثم مد يده بالورقة الخاسرة نحـو صـاحبها الجديـد محـاولاً رسـم ابتـسامة اعـتذار علـى وجهه:

- أعتذر يا عم... فهذه الورقة خاسرة...

تـناول العجـوز المخـدوع الـورقة واسـتدار نحـو البحـرة ومشى ببطء كئيب...

فجـأة حوّمت زوبعـة عـصافير حول فتات خبـز مبلل ثم حطت فوقه وخرج من مخبئه جرذ يكشر بشماتة ناظراً نحـو كـيس الدهـشة الجـالس علـى المقعـد القـريب، ففرت العصافير من الخطر القادم واتسعت تكشيرة الجرذ وزاد تحديقـه في عينَـي رجـل راح يـسمع انفجـارات مدويـة في صـدره... نظـر بـرعب حـوله محـاولاً الـبحث عـن فتـيل الانفجـارات الـتي راحـت تطحن قلبه، فلم يرَ إلا ذاك المسنَّ لا يـزال يمـشي مبتعداً وقد تحولت كل خطوة من خطواته إلى قبضة معتصِرة للقلب المذنب... تصاعد ألمه حتى تسرب

إلى خشب المقعد تحته، فراح المقعد يئن! وتصوَّر المحتضرُ أن العمر لن يتسنى له بعد هذه اللحظة للتمتع بالجائزة الكبرى، فنهض مسرعاً كأن موجةً هادرة دفعَتْه نحو الرجل المسن، فدفع أمامه العصافير والجرذ والمشهد بأسره:

- يا عم... يا عم...

ووثب أمام العجوز آملاً أن يصد الاختناق عن روحه:

- هذه الورقة هي ورقتك...

ومد يده ليناوله إياها:

- لقد ربحتَ الجائزة الكبرى...

نظر العجوز إلى الورقة المرتعشة... تناولها... ووضع مكانها الورقة الخاسرة كما يضع قطعة نقد في يد متسول، والتف حول عامود الخيبة الذي انتصب قرب البحرة منذ لحظات، ثم مضى...

رجل الدورية تغيّب بعد ذاك اليوم عن دوريته زمناً طويلاً، تحوّل خلاله إلى مِزق محترقة بأيدي مشاعر متصارعةٍ... ندمٍ لتضييع جائزة كبرى، وندم لمحاولة سرقة ربما كان ما آل إليه بعدها جزاءً لها، وخوف من أنياب جرذ ساخر راح يطل عليه من كل أرجاء منزله ومن خلف كل قطعة أثاث فيه، وخوف حتى من عصافير تحوم حوله

كأنه قطعة خبز مبللة تريد تقاسمها بسكاكين مناقيرها... و... و...

وفي أوساط زملائه وبين السائقين الذين ارتاحوا من أحد مصادر إزعاجهم سَرَت الأحاديث حول إصابته بمس من جنون دفعه للهذيان دائماً بجرذان وعصافير وأوراق حظ رابحة وحديقة قريبة من كراجات مدينته لم تكن موجودة أصلاً!!

حديقة الصّبّار

الأصابع الطويلة

أموره كلها نظامية... ليس عليه إلا أن يجمع بعض الأوراق الرسمية من هنا وهناك ويضمها في إضبارة واحدة كي تسير معاملته... ولده المريض سيُجري العملية التي يعجز هو عن أن يجريها له بإمكانيته الأضيق من خرم الإبرة! حملته ابتسامة الطبيب المشجعة إلى عالم مطرز بالأمل، ومعطر بالأمل، لكنه...

*

مصعوقاً وقف أمام موظف الذاتية في دائرته الرسمية...

ـ ليس لك اسم عندنا...

وباءت محاولاته لإقناع ذاك التيس العنيد بأنه موظف في هذه المديرية منذ عقود، بالفشل!

ـ لا يمكن أن يكون هناك خطأ، فقد تقدمت للحصول على صورة لإضبارتي الذاتية عشرات المرات، ولم ينكر أحد عليّ وجودها! سأرفع شكوى...

واقتحم مكاتب موظفين أعلى من ذاك في المديرية، لكنهم قلبوا شفاههم ببلاهة معلنين عدم مسؤوليتهم عن حالته، فاقتحم مكتب المدير الأعلى الذي لا يمكن أن يكون في المديرية ما لا يمكن أن يدسّ أنفه فيه! ومع كل التوتر والعصبية التي اجتاحته في المكاتب السابقة وبعد كل الصراخ أمام مدير مكتبٍ يريد منعه من مقابلة المدير، وجد نفسه يخبو أمام الجلمود الأكبر وتصلبه اتجاه الشكوى على كل الموظفين الذين قابلهم...

ـ تأكد أولاً من مكان وظيفتك قبل أن تثير كل هذه الفوضى!

ـ لكنني مدرّس ومدير مدرسة منذ ثلاثين عاماً، وأنت تعرفني جيداً!!

ـ ليس لك رقمٌ ذاتيٌّ ولا إضبارةُ موظفٍ تثبت هذا! قد تكون مخطئاً!!

وفي محاولة بدت أقرب إلى الاستجداء منها إلى الإقناع:

ـ يا أستاذ... كيف أكون مخطئاً وأنا لا أزال مديراً للثانوية الـ...

ورفع المدير يده مقاطعاً:

ـ كما ترى... لدي عمل كثير، ولا وقت لدي لهذا النقاش... أثبت هذا بأوراق رسمية وسأكون معك...

وربت على كتفه كأنه آسٍ يجسّ عليلاً، ثم دفعه ليخرج وقد راح يشكّ في نفسه...

ـ أأكون مخطئاً؟! هل أصابني الجنون؟!

وتجاوز الشارع إلى الرصيف المقابل للمديرية ليتأكد من أن هذا المبنى هو نفسه الذي دخله قبل اليوم مئات المرات، وظل يهمس يائساً:

ـ أأكون مخطئاً؟!

*

حيْرته كانت أكبر من أن تتلاشى، لكن الهواء والشمس وأصوات الزحام في الشارع اجتازت به أدغال الوجوم الذي علاه ودفعته للتوجه إلى النقابة... لكن الرد نفسه واجهه أمام قنفذ شاحب وضع على عينيه نظارة سميكة ليخفيهما، لا ليرى بهما!!

في هذه المرة لم يقصد نقيب المعلمين لتقديم شكوى على الموظف، كأنه كان واثقاً من الرد الببغائي، أو كأنه كان يريد أن لا يصدمه الرد!! شعر أن وجوده مهدد بالانمحاء، وأنه كتلة ملح تذوب منها أجزاء لا يمكن أن تُعَوّض مع كل موجةٍ مباغتة تصدمها... لم يعد يستطيع التفكير في الأوراق الرسمية التي ينبغي عليه الحصول عليها، فعاد أدراج الخيبة يجرجر خُطاه إلى بيته...

لم يتحمل عبء التفتيش عن المفاتيح في جيوبه، فطرق الباب لتفتح له زوجته بابتسامتها العذبة الحزينة... نظر في عينيها... أراد أن يرى نفسه فيهما... أن يتأكد من أن هنالك عيوناً تراه في هذا العالم!

شعرت بارتباك وقفته:

ـ ما بك؟! لماذا لا تدخل؟!

خطا خطوة نحوها وضمها إلى صدره وهو يكاد يجهش:

ـ إذاً فأنتِ ما زلت معي...

ولده الذابل تفتّح ليرحب به أيضاً... ومد يده ليمسك يد أبيه ويضغطها مشجعاً...

*

نسي في حضن المنزل ما جرى له بالأمس، فخرج في محاولة جديدة...

في مكتب التأمينات قابله الرد نفسه، وعند المختار أيضاً، وحتى عندما عاد إلى الثانوية... دخلها دون أن ينظر إليه أحد من طلابها أو مدرسيها، كأنه شبح خفي! وكانت مفاجأته الكبرى في دائرة الأحوال المدنية... فوفقاً لسجلاتهم لم يكن قد وُلِد، ولم يكن قد عاش، ولم يتزوج ولم ينجب، وحتى لم يمت!!

في الحي صار الجيران يمرون به دون إلقاء التحية، ونادل المقهى القريب من منزله صار يتجاهله، بل ما عاد يراه أو يلبي نداءه، حتى إن بعض رواد المقهى صاروا يجلسون على طاولته دون أن يستأذنوا كأنه غير موجود!!

وبلغ به التوتر الذروة... صار يمشي وهو يكلم نفسه كي يتأكد من أن له صوتاً، ويلمس جسده كي يتأكد من أن له كياناً مادياً يُلمَس! وعاد في كل مرة ليهرب إلى حضن بيته... زوجته وولده كانا الوحيدَين المعترفَين بوجوده، والرافضين لسلوك العالم من حولهما! حتى مرآة المنزل صارت شاحبة ومتموجة لا تقدِّم له تأكيداً بأن ذاك الجسد المشوّه فيها هو جسده!! حتى شعر أن أصابع طويلة

تسبقه إلى كل مكان يذهب إليه لتعبث به وبحياته دون أن يعثر عليها أو يحدد أصحابها!!

*

قلّب السيد كل التقارير أمامه، وفكر:

" لا أريده أن يُجَنّ... فالمجانين لا يشعرون بالألم... لا يشعرون بالعار!! ولا أريده أن يموت حتى يعيش ما عشتُه... من اليوم فصاعداً سأفعل به ما فعل بي... سأجعله يأتي إلي كما كنت أذهب إليه، ويخبرني بما كنت أخبره به... وسأجعل الدنيا كلها تزدريه كما ازدرتني بسببه!!"

مد يده إلى جرس قريب وضغط، فدخل شاب مطأطئ الرأس مرتعد الفرائص... ودون أن ينظر إليه السيد، قال:

- الآن دلّوه إلى بابي...

*

لم يعرف الأستاذ وجيه من أين أتاه الصوت:

- لن ينقذك إلا " ... ".

نظر حوله... لم يرَ أحداً! كان قد بدأ يقتنع بأنه تحول إلى كائن لا صورة ولا جسد له، لكنه لم يكن واثقاً بأن أحداً غيره يملك هذه الصفات، وفي اللحظة التي سمع فيها الصوت شعر أن الكائنات المفتقدة للصورة قد تكون أكثر مما يتصور، فدغدغت قلبَه فرحةٌ أنانية...

" لستُ الوحيد إذاً..."

لكن الصوت عاد إليه من حيث لم يدرِ:

- لن ينقذك مما أنت فيه إلا " ... ".

" أكاد أجزم أنني سمعت هذا الاسم من قبل، لكن أين؟!"

ولم تشغل قضية الاسم باله طويلاً لأنه كان غريقاً يبحث عن قشة قد تنقذه، وها هو قد وجدها!

*

قبل اليوم كان يظن أن عبور عتبة البوابة الأولى فقط لهذا المبنى يحتاج إلى ساعات انتظار وإجراءات تفتيش وتحقيق، فضلاً عن البوابات التالية، لكنه عبَرَها دون أن يسأله أحد عن اسمه أو عن وجهته... الحراس المسلحون بدوا له تماثيل من شمع لا ترى ولا تعي... سار في الممرات

الطويلة والردهات الواسعة يتحاشى أن يسأل أحداً عن مقصده كي لا يصطدم من جديد بحقيقة تحوله إلى كائن لا يتوقف عنده الضوء ولا ينعكس عنه! إلى أن وصل إلى الباب الأكبر والأعلى في المبنى الضخم، وقرأ على الباب كلمتين اصطكت مع ترديده لحروفهما أسنانه، وكاد يبتلع لسانه! نظر حوله... الممر الأفعواني فارغ... دفء خانق يغمر المكان... وضياء خافت تبعثه مصابيح مخفية في السقف وفي الجدران جعله يشعر أنه تحت الأرض على الرغم من ثقته بأنه صعد عدة أدوار من المبنى للوصول إلى هنا!

" أما من أحد أستطيع استئذانه بالدخول؟ لا أريد أية غلطة مع هذا العملاق الجاثم في الداخل... فالغلطة معه قد..."

ومد يده إلى عنقه وهو يستشعر ضغطاً عليها يكاد يخنقه! فكر بالعودة من حيث أتى، لكن المصير الذي ينتظره إن لم يدخل كان يطل عليه ويمد لسانه هازئاً...

" ستصير إلى العدم... لن تكون إلا وهماً... وولدك لن يُجري العملية..."

تصبب عرقاً وهو يرفع يده ويحاول أن يكسر الهواء المتحجر الفاصل بينها وبين الباب، وما إن لمست يده الباب

لمساً هو نفسه أراده غير مسموع، حتى تزحزحت صخرة المغارة مصدرة هديراً أصمّ أذنيه! ومرة أخرى شعر بأصابع خفية تدفعه من ظهره نحو الداخل... لم يجرؤ على التطلع للخلف لرؤية صاحبها، فراح يتأمل الفضاء الواسع لغرفة كان يظن وصول أمثاله إليها مستحيلاً، باحثاً عن شخص يكلمه أو حتى يطرده!

- اجلس يا أستاذ وجيه...

لم يرَ أحداً، لكنه انصاع بالجلوس على أقرب كرسي لمحه على مبعدة أمتار من الباب، وراح ينظر حوله لعلّه يلتقط مصدر الصوت!.. عذابه استمر ساعات سارت بسرعة سلحفاة ميتة، حاول خلالها أن يهرب فألفى صخرة الباب لا تتزحزح، وتثبّت في أنها جزء من جدار عملاق حُبِس خلفه ولن يتمكن من تجاوزه... صرخ... ضرب الجدران بقبضتيه، لكنه لم يسمع رداً...

" ها قد تحوّلتُ إلى وهم حقاً... بعد اليوم لن أكون موجوداً ما دمت مسجوناً خلف هذا الجدار!"

رجا الصوتَ الذي استقبله... توسل إليه دونما مجيب... حاول التماسك وانتظر، لكنه عاد فتفجر متوسلاً:

- لا أريد الخروج من هنا، لكنني فقط أريد أن أسمعك، فخاطبني أرجوك...

لكن سدىً!.. وبعد اليأس حتى من اليأس جلس على الكرسي الذي استقبله عند دخوله وهو يتأمل كل رحابة المكان كأنها قبضة تضغط على صدره ليختنق رويداً رويداً...

*

حين فتح عينيه بعد إغماضة لم يدرِ مقدار طولها، اصطدم بصره بجدران تمنى لو أنه لم يرها أو لو أنها جاءته حلماً لا واقعاً، لكنه لمح مع التفاتة صغيرة نحو عمق الغرفة الشاسعة دخاناً كثيفاً، ورأى رجلاً ينبثق من خلال الدخان كأنه مارد المصباح، فقفز على الرغم من الوهن الذي كان يجثم في جسده متجهاً نحو المكتب العملاق:

- يا سيدي... جئت أطلب أن أجد نفسي! فإن كان طلبي مغضباً لكم فأنا أعتذر... أنا لست موجوداً يا سيدي كي تغضبوا مني... أنا لست شيئاً...

واصطدم بخوفه يمنعه من الاقتراب أكثر لتقبيل يد السيد خلف مكتبه، فمكث واقفاً بانتظار انقشاع أدخنة السيجار التي غلفت السيد بغمامة مرعبة...

- اجلس يا أستاذ وجيه...

ووضعت يد بدت للأستاذ وجيه ذات أصابع طويلة طويلة السيجار في منفضة فوق الطاولة، ليتقدم السيد مسنداً صدره إلى المكتب قائلاً في لهجة آمرة حازمة:

- اجلس يا أستاذ وجيه...

وجلس الأستاذ وجيه وهو يحاول أن يتذكر هذا الوجه الذي بدا مألوفاً له!..

- هل تذكرتني يا أستاذ؟!

وتحجرت الذكرى في رأس الأستاذ، بينما راحت تتفجر في رأس السيد...

*

السيد الذي صار اسمه أكبر من أن يُلفَظ كان اسمه في ذاك الزمان أدهم..شعر بنشوة عارمة وهو يأخذ نفساً عميقاً من سيجارة اشتراها للتو... استولى على رأسه دوار لذيذ فاستند إلى سور المدرسة الخلفي ناسياً الأحاديث الدائرة بين زملائه عن المدرّسين والاختبارات والفتيات الجميلات! أغمض عينيه سابحاً مع دواره في مياه دافئة ساكنة، فأسعده الانعتاق وهدّأته السكينة، وتمنى أن يغوص أعمق وأعمق في تلك المياه كي ينسى... لكن ما

نسيه في غمرة تأمله كان الحذر الواجب اتجاه مراقبة الموجِّهين ودورياتهم في باحة المدرسة ومخابئها المحتملة، فلم يصحُ على فرار زملائه من حوله إلا ويد الموجه الصلبة تقبض على كتفه مع نظرة متشفية متوعدة...

- تدخّن في المدرسة؟! سوف ترى!

وجرّته اليد الثقيلة نحو غرفة المدير لترميه عند الباب رافعة سبابتها آمرة بالانتظار...

وبدأ الانتظار... مضى درس الرياضيات، ومضى درس العلوم، وهو واقف أمام الباب والقلق يعتصره، حتى صار يشعر بمساميره الفولاذية تنغرس في ركبتيه وفي قلبه!

وأخيراً... انفتح باب الإدارة وأشارت له تلك اليد التي رمته هنا منذ دهور آمرة بالدخول...

- إذاً يا أدهم... كنت تدخن في المدرسة!!

وأطرق دون أن يجيب ليملأ عينيه باللون الأسود اللامع لحذاء المدير...

- سأقوم بإخراجك ليومين، على أن تعود بصحبة والدك...

كان قلب أدهم قد سقط من صدره منذ أمسك به الموجه متلبساً، لكنه في هذه اللحظة شعر أن قلبه اخترق

الأرض ليدفن نفسه فيها، فصارت الأرض لشدة نبضه تنبض معه كأنها قلب كبير واجف! واستدار الأستاذ وجيه بتثاقل نحو مكتبه ليخطّ قرار الإخراج، فاندفعت الحمم من صدر أدهم:

- أرجوك يا أستاذ... كانت غلطة ولن تتكرر...

- ومع هذا عليك أن تقدم اعتذارك وتعهدك هذا أمام أبيك...

ومادت به الأرض تحت وقع الكلمة " أبيك "، وقفز في وجهه شبح مرعب... عينان حمراوان جاحظتان... تكشيرة تطل منها أنياب ساغبة... صفعة في حجم روح مرتعبة... شتائم وإهانات وركلات يهون وقعها كلها عندما تعصف العقوبة الأخيرة... كان يشعر أن كل التفافة لذاك الخيط الرفيع حول أحد أصابعه تنتزع مزعة من روحه، فهذا الألم سيستمر بعد الآن ساعاتٍ ستجعل من حياته جحيماً يتمنى الفرار منه... فبعد ألم الضغط الذي يسببه الخيط الملفوف بقسوة أصابع يد الأب الضخمة المتفحمة، يبدأ ألم هادئ منساب من عقدة الخيط باتجاه أطراف الأصابع التي غدت بعيدة جداً عن منابتها، وبعدها يبدأ نبض غريب بالسيطرة على تلك الأصابع كأن كلاً منها صار قلباً متفجراً، ثم يرزح في

خلاياها خدر يتمنى معه لو أنه كان دون أصابع، ودون أن يجرؤ على فك العقد الصغيرة لما سيلاقيه من عقوبات جديدة! وما أن تحين من الأب الحانق غفلة بعد دهر من ألم حتى تبادر الأم المهانة إلى فك مشانق الأصابع الصغيرة التي ما كان أدهم ليجرؤ على فكها بنفسه حتى لو هاجر والده لأعوام أو حتى لو مات!!

وها هو الأستاذ وجيه يريد استدعاء والده... يريد استدعاء ذاك الألم وذاك الخدر، فشعر أن أصابعه قد شُلّت تحت ضغط خيط رفيع معقود بإحكام، فكان لا بد له من أن يفعل شيئاً:

ـ أرجوك يا أستاذ... أعدك أن لا يتكرر هذا ثانية...

وأوصد الأستاذ وجيه أذنيه:

ـ لا بد من حضور والدك...

وهزّته الكلمة ثانية... لا يريد أن يحصل له هذا... لا يريد أن يعيش هذا العذاب من جديد!! هجم على يد الأستاذ ورفعها كأنه يريد تقبيلها، وقد انهمرت من عينيه دموع كادت تتبخر فوق الجمر الذي كسا وجهه:

ـ أرجوك يا أستاذ... أرجوك... أنا مستعد لفعل أي شيء تريد، لكن لا تفعل بي هذا...

عندها شعر أن جليد الأستاذ وجيه قد تململ... وبعد لحظات ثقيلة سمع صوته:

ـ حسناً... يمكن أن نغض الطرف عن هذا السلوك... لكن بشرط...

بدا له مع انفراجة الأمل المطلة أن أي شرط سيكون أهون عليه مما يمكن أن يلاقيه من أبيه، لكنه لم يكن يتوقع أن يكون الشرط صعباً إلى هذا الحد...

ـ بما أنك طالب محبوب وذو شعبية بين زملائك، فنحن نريد منك أن...

ونظر المدير نحو الموجه ليتبادلا ابتسامة مقتضبة...

ـ نريد منك أن تخبرنا بكل الأحاديث والمشاغبات والمخالفات التي يمكن أن تحصل بين زملائك...

عندها شعر أدهم أنه يصغر ويصغر حتى لمح الحذاء الأسود اللامع للمدير يعلو قامته ويهدده بالدعس كما يهدد حشرة حقيرة...

*

يوماً بعد يوم تمنى لو أنه يستطيع الانفكاك من الأصابع الطويلة للأستاذ وجيه، والتي صارت قادرة على التحكم به أينما كان كي يفر من الأصابع الطويلة لأبيه

ومن آلام أصابعه هو وهي تختنق وتُشَلّ... تمنى لو أنه يستطيع الاعتذار من زملائه الذين راحوا يتجنبونه يوماً بعد يوم، بل وصاروا يزدرونه كجيفة ويمنعونه حتى من الاقتراب منهم، حتى صار يكره نفسه ويكره زملاءه وأباه والأستاذ وجيه، بعد أن راح يغرق شيئاً فشيئاً في لجّةٍ وجد نفسه عاجزاً عن الخروج منها بدءاً من المدرسة إلى الجامعة... وإلى...

*

ـ ألا تذكرني يا أستاذ وجيه؟! أنا أدهم... أحد طلابك... ألا تذكر ذاك الشرط؟!

وعادت ذاكرة الأستاذ لتنبش في ركام الذكريات، وتذكر أنه وضع عشرات الشروط على عشرات الطلاب! فمن يكون هذا الأدهم؟! وتذكر أن كل شروطه لم تكن لتزرع محبته في قلوب طلابه، فتوجس خيفة، وتمنى أن يخرج في الحال من هذه الورطة، وتناهشته رغبته بين إجراء العملية لابنه، وإثبات أنه ما زال موجوداً في هذا العالم، والعودة إلى عمله الذي تقيّأه، وبين الانفلات من القبضة العملاقة التي وضع نفسه فيها!

مر وقت طويل قبل أن تظهر ابتسامة أدهم من خلف ضباب سيجاره الثخين الذي عاد لاستعراض نفسه أمام الأستاذ وجيه بين الأصابع الطويلة للسيد، ليقول:

- أعرف يا أستاذ وجيه فيما تفكر... يمكن أن يتحقق كل ما ترغب فيه بإشارة واحدة من إصبعي هذه!

ورفع سبابته التي نسيت آلامها القديمة بانتقامها من عشرات الأصابع التي حاولت الوقوف في وجهها، ليكرر في وجه الأستاذ وجيه عبارة منحوتة في ذاكرته كالطعنة:

- يمكننا أن نغض الطرف عن كل ما مضى يا أستاذ، لكن بشرط...

الشجرة التي بكت

لا تذكر متى أو كيف بدأت حياتها هنا... كانت تعرف فقط أنها ما زالت سامقة ثابتة في مكانها الذي تحبه كثيراً منذ زمن طويل لم تكن قادرة على قياسه، فلم تكن يوماً معنيّةً بالأعوام أو بالأيام وحسابها! كانت تتمايل خجلاً مع غزل النسيم العليل لأوراقها وأغصانها، فتتنفسه لتعيش به ويعيش بها، وتفتح أوراقها كأيادٍ متضرعة لتضم شعاع الشمس وروعة دفئها، وتمدّ جذورها لتتلقف بسعادة ما تهبه لها السماء وما تحفظه لها الأرض من مياه عذبة...

ومن مكانها في ذاك السهل الواسع كانت ترى من بعيد طرقاً وسياراتٍ وأبنيةً ضخمة تقترب منها شيئاً فشيئاً دون أن تميّز في البداية إن كان ما تشاهده هو الذي يقترب أم أنها تزداد طولاً وإشرافاً على المنظر ليزداد وضوحاً وقرباً!

لكنها راحت تعي يوماً بعد يوم أن نموها لم يكن كافياً لتسريع اقتراب ذاك المشهد الغريب منها إلى تلك الدرجة... ثم بدأت تسمع أصواتاً تقترب وتشم روائح كادت تصيبها بالدوار! لم تستطع أن تفهم شعورها إزاء ذاك المجهول المتقدم نحو سكينتها وسعادتها بما تعرف مما يحيط بها! فلقد امتزجت في داخلها الآمالُ بسكنى أصدقاء جدد في جوارها لتعيش معهم من السعادة ما عاشته وتعيشه مع أصدقائها القدامى، والرهبةُ من الضجة والتلوث اللذين بدأتْ، قبل إحاطتهما بها، تحس بوطأتهما... لكن مشاعرها ما كانت لتمنع المد الزاحف نحوها...

سنوات فقط وأحاطت بها الطرقات والأبنية، ثم وفجأة بنوا سوراً عالياً حولها، ثم بنوا في حضن السور بناء من طوابق عديدة راح بعض الناس يدخلونه ويخرجون منه، ومما أسعدها أن زُرِع حولها عدد من الأشجار الصغيرة، فتمنت أن يصبحن صديقاتها عندما يكبرن وتثبت جذورهن! وسمعت الزارعين يطلقون على الشجيرات أسماء مختلفة ويطلقون عليها اسماً أيضاً، لكنها لم تهتم لهذه الأسماء، فالأشجار، عندها، هي الأشجار...

وفي يوم قام عمالٌ بتثبيت عدد من المقاعد الخشبية في المساحة المحيطة بها والمحصورة ضمن السور العالي،

وكان من نصيبها مقعد خشبي ثُبِّت تحت ظلالها حزنت كثيراً لمصير الشجرة التي كانها... وعلى ذاك المقعد صارت تأتيها الأحزان قصة بعد قصة، فقد اكتشفت بعد حين أن ذاك المبنى مخصص لإيواء المسنين الذين صاروا يفدون إليه واحداً بعد واحد لينشروا ظلال قصصهم على ذاك المقعد وعلى مسامع تلك الشجرة... ومع كل قصة كانت ترتعش حزناً وتذرف من كل ورقة من أوراقها دمعة ليهرب الجالسون تحتها من مطر الدموع المتساقط فوقهم! صارت تعرفهم واحداً واحداً... تعرف من يتجه منهم نحوها قبل أن تراه... مِن أصوات أنفاسه ونبضات قلبه المتعَبة ومن تعثر خطواته فوق جذورها الضاربة في طول المكان وعرضه... فهذا أب وتلك أم أطعما أبناءهما للرحيل فأطعمتهما غربة أبنائهما لأنياب الوحدة الساغبة، ثم للعجز الذي لا يتراجع متى بدأ هجومه... وهذا أب نهشه أبناؤه ثم ألقوا بما تبقى من أنفاسه في هذا المنفى ليرتاحوا في تخمتهم من دمائه... وتلك أم اختارت بنفسها القدوم إلى هنا كي تخفف من وطأة سنواتها الثقيلة عن كواهل ابنائها متمنية أن يطلبوا منها البقاء... أن يعلنوا عن استعدادهم لتحملها فيما تبقى لها من أيام... لكنهم لم يفعلوا... وهذا... وذاك... وتلك... منهم من يشكو همومه للآخر ومنهم من يدفنها في صدره حتى يضيق بها فينفجر

بكاء... في البداية صار الكثيرون يتحايدون الجلوس تحت تلك الشجرة متجنبين التبلل بدموعها المدرارة... لكنهم راحوا يكتشفون فيها قلباً يستطيعون أن يفضوا إليه بما يعتمل في قلوبهم ليحس بهم ويبكي لبكائهم ويحزن لحزنهم... اكتشفوا أن هذه الدموع تنهمر استجابة لدموعهم وأن تلك الأغصان تذوي لتداعي آمالهم، وأيقنوا – حتى دون أن يشهدوا دليلاً على ذلك – أن جذور تلك الشجرة تهتز تحت الأرض محاولةً أن تسند تهالكهم وتساقط ضعفهم فوق التراب... أعطتهم الحب فأعطوها الوفاء... كيف يمكن لعالم بهذا الاتساع أن يكون ضيقاً إلى هذا الحد؟!

وحاولت أكثر من مرة أن تمد أغصانها نحو ذاك المقعد كي تلمس وجناتهم وتجفف دموعهم، أو أن تمد جذورها القوية من تحت الأرض لتتسلق ذاك المقعد وتربت على أكتافهم، لكن يدَي ذاك البستاني كانت تسارع إلى قطع أيادي حنانها قبل أن تبلغ غايتها بحجة تزيين الحديقة وزيادة جمالها!

تمنت أن تجد من تفضي إليه بأحزانها، لكنها خسرت حتى أصدقاءها القدامى، فالنسيمُ صدّته الأبنية العالية عن الوصول إليها، وصار إذا ما تسلل خلسة للقائها

يأتيها محمَّلاً بالغبار وبالسخام، فتكاد لا تعرفه، وتبكي لحاله كما تبكي لحال سواه ثم تكبت دموعها كي لا تحزنه، والسهلُ الواسع الأخضر مزقته الشوارع وملأ وجنتيه جدري الأبنية، فدُفِن حزيناً كئيباً تحت أطنان الإسمنت الصلب، والعصافيرُ هجرت أعشاشها الدافئة على أغصانها ومضت تبحث عن أشجار لا تحيطها الضوضاء والأيادي العابثة... حتى الشمس صارت تطل إطلالات متباعدة بعد أن حجبتها ظلال الأبنية الشاهقة... خسرت الشجرة كل هؤلاء ولم تكسب سواهم كما كانت تنتظر... فالأشجار الفتيّة التي راحت تنمو حولها ما كانت لتفهم لغتها العتيقة وما كانت لتحس بآلامها وأحزانها، حتى أنها ما كانت لتحس بآلام أولئك الذين توزعوا المقاعد في ظلالها... لكن لماذا؟! وتذكرت كيف جاءت تلك الأشجار غرسات طرية في أكياس مملوءة بتراب غريب اللون والرائحة، ثم راحت تُسقى بمياه جعلتها هي نفسها تشعر بالغثيان حين امتصتها جذورها لأول مرة ثم امتنعت عن امتصاصها... وتذكرت أيضاً... فهذه الأشجار لم تعرف النسيم ولا السهل الفسيح ولا مرافقة الشمس طوال النهار ولم تزرها الطيور إلا لماماً... فانزوت في حزنها، وفي أحزان أولئك الذين كانوا يقصدونها

ليحسوا أن كائناً حياً في هذا الكون يشعر بآلامهم... يرثي لأحزانهم... بل ويبكي لهم! إلى أن كان يوم...

نقلت الجذورُ إلى الشجرة وقع خطوات قوية لم تكن بالتأكيد لأي من النزلاء، وما لبثت أن رأت عدداً من العمال يحيطون بها وقد اصطحبوا عدداً من المناشير اليدوية والفؤوس ومنشاراً كهربائياً، ثم راحوا يتباحثون في كيفية قطع الشجرة وجهة سقوطها ثم كيفية تقطيعها ونقلها! لم تصدق ما سمعت، فلم يخطر في بالها يوماً أن نهايتها ستكون بهذه القسوة! حاولت أن تتحرر من جذورها لتهرب، لكن الجذور تشبثت بها وبالأرض... حاولت أن تلوّح بأغصانها رافضةً... أن تصفع وجوه أولئك الغرباء القساة... لكنها اكتشفت ضعفها وعجزها، ولمحت الكثير من أوراقها الصفراء تتساقط مع اهتزازها جثثاً هامدة راح العمال تحتها ينفضونها عن رؤوسهم ومناكبهم... وتذكرت... مضى زمن طويل لم ترتوِ فيه من ماء السماء الذي تحب، فكل هذا الإسمنت المفروش فوق الأرض حولها صدّ الأمطار عن التسلل إلى جذورها، وإذا ما أفلحت في التسلل قاسمتها بها الأشجار الفتية... وتذكرت أيضاً أنها ترفض أن تشرب من تلك المياه الآسنة التي تساق إليها بالأنابيب، وانتبهت إلى أن اسمها تغير

أكثر من مرة منذ أحاط بها ذاك السور، فمن الشجرة الكبرى إلى الشجرة الباكية ثم الشجرة الصفراء... وصفعتها التسمية الأخيرة... "الشجرة اليابسة"...

طوال سنوات سمعت مئات القصص المحزنة، وشعرت بآلام أولئك الذين كانوا يقصّونها وبكت لهم، لكنها ولأول مرة تشعر بشعورهم فعلاً، فها قد صارت مسنّة يبست أغصانها وأوراقها، وبعد لحظات ستصير نهباً لأنياب الفؤوس والمناشير، وقد تتحول إلى مقعد ميت إلى جانب هذه المقاعد التي طالما رثت لحالها! واندفعت دموع حارة لم يسبق لها أن ذرفتها تتفصد من أغصانها وأوراقها وتتساقط فوق أولئك المنهمكين في التخطيط لقطعها، فابتعدوا عن ساقها متحاشين غيمة الدموع التي تحولت إليها الشجرة...

ولمحت في خضمّ بكائها أولئك المسنين يندفعون من داخل المبنى بإصرار تغلب على ضعفهم وتثاقلهم وحاجتهم إلى من يسندهم ليحيطوا بالشجرة واحداً إثر واحد...

- ما الذي تفعلونه؟!

- لن نسمح لكم بقطع هذه الشجرة...

وكانت قلوبهم تصرخ:

"لـن نـسمح لكـم بقطـع أواصـرنا بالكـائن الوحـيد الـذي بقـي علـى وفائـه لـنا، بعـد أن تقطعـت بكـل تلـك الكائنات اللاهية عنا خلف ذاك السور..."

كـان كـل منهم يشعر أنـه يقـدم لهذه الشجرة ما لم يقدمـه لـه أقـرب النـاس إليه في أشـد سـاعات عوزه وحاجته إليهم... كـان كـل منهم يشعر أنـه بوقفته المتحدية هـذه يستعيد الـزمن الـذي كـان فيه قـوياً وقـادراً علـى الـتحدي ومناطحة الصخور من أجل من يحب دون أن يعلم في تلك الآونـة أن أولـئك الـذين أحـبهم وتحـدى الكـون مـن أجلهم سـيأتون بـه يـوماً إلى هـذا المنفـى، وسـيلقون بـه في هـذه العزلة!

وحاول العمال أن يوضحوا:

ـ لقد هرمت هذه الشجرة وينبغي قطعها...

ـ كما ترون فقد يبست أغصانها واصفرت أوراقها...

ـ لقد صارت تسيئ إلى منظر حديقتكم...

ـ وهذه المياه التي تسيل من أوراقها تلوث المكان...

وحاولوا الاقتراب منها بمعداتهم، لكن المسنين وقفوا كتفاً إلى كتف وأمسكوا بأيدي بعضهم بعضاً... حتى من كـان منهم يحمـل عكـازاً ألقـى عكـازه وجعـل مـن جسد مجاوره مستنداً له حتى شكلوا بأجسادهم حولها

سوراً، وعلت وسط صمتهم الحازم الصرخات من قلوبهم دون أن يجهروا بها ليقينهم بأن أولئك الجاحدين لا يمكن أن يفهموا ما يعنون:

"لا يمكن لدموعها التي تغسل قلوبنا أن تلوث المكان... إنما المكان ملوث بكم!"

وأجهشت الشجرة بالبكاء وهي ترمق ذاك المشهد، وفاضت دموعها كما لم تفض يوماً، وقد اختلطت دموع الحزن لما آلت إليه بدموع السعادة التي وهبها إياها أولئك المسوِّرون لها... وطال إصرار العمال وطال تحدي المسنين وطال بكاء الشجرة حتى أحس المحيطون بها أن أرجلهم بدأت تغوص في الوحل! نظر الجميع إلى الشجرة الباكية ليُفاجَؤوا بها وقد راحت تذوب مع كل دمعة تذرفها، بينما راحت أقدامهم تزداد عمقاً في الوحل الذي راح يتسع ويتسع حولهم حتى اختفت الشجرة وغاصت المدينة في الوحل...

الصوت

وانزويتُ...

شعرتُ أن كل ذاك العالم لا يتسع لأحلامي، ولا يمكنه أن يعتصر روحه ليصنع قطرة من مرهم لآلامي... فانزويت...

وجدت نفسي أغلق الأبواب من حولي وأغوص في تأمل اكتظاظ أغراضٍ أهرقت عمراً في تجميعها، كي تغطي الامتداد الكئيب لأرض غرفة باردة أو لجدران خرساء...

ولمحتُ ذاك الكائن المشحون بالترقب لرنة مدفوعة باتجاهه عبر سلك يفضي عند طرفه الآخر إلى شكل آخر من أشكال الحياة! لمحت ذاك الهاتف الصامت الذي ظل بوابتي الوحيدة المفتوحة مع العالم الذي هربت منه...

أبوابي كانت قد أرتجَت برودتها بكل ما كوّمه العالم وراءها من رمال منذرة بالانهيار على جراحي ما أن أفتحها لأطل على الشمس والسماء والهواء...

وتتبّعت بعينيّ المنهكتين سلكه الدقيق الذي ما زال قادراً على إدخال عمالقة الخارج إلى جوف وحدتي كي يمزقوها، فتململتُ أريد سحبه، بل أريد قطعه لأنفصل عن مشيمة ذاك الكون التي لم تزودني إلا بالآلام...

وكما في كل مرة أهمّ فيها بالانسلاخ عما هو ملتصق بي، اجتاحني ألم الانفصال، وغزاني ضعف هيّأ لي خاطراً كاد يردع يدي عما اتجهت نحوه...

" هذا السلك ليس دقيقاً فحسب... إنه رقيق أيضاً إلى الحد الذي لا يمكن إلا لروح مترقرقة ولحلم متهاد ولفرحة راقصة أن تتسلل عبره! فاتركه متصلاً كي لا تغدو غصناً مقطوعاً في صحراء... كي لا تغدو غيمة محبوسة في أمنيات القحط..."

وكدت أتراجع... كدت أقبل من نفسي ما سوّلته لي نفسي! لكن عزيمة الانزواء التي دثّرت نفسي بها قبل لحظات أو قبل دهور صفعتني بقسوة طبيب يريد لمريضه أن يستفيق من غيبوبة قد لا تعود به إذا ما طالت، فاستفقت... ومددت يدي وسحبت سلكاً معلقاً بالحائط الملامس لحدَّي العالم بالنسبة لي... حدِّه في داخلي وحدِّه في خارجي...

لم يكن إقفالُ أبوابي على عتمتي أوّلَ عهدي بالانزواء، فقد قررت منذ زمن لا يحده زمن الدقائق والساعات والسنوات، أن أنزوي على الرغم من وجودي بين المئات أو الآلاف من تلك الكائنات الثرثارة لا بألسنتها فحسب، بل بكل ما أوتيت من أفكار قادرة على الطعن غدراً وعلى القمع وعلى الكذب وعلى... وعلى... فصنعت من صمتي بينهم جداراً أشد صلابة وأكثر مقاومة من جدران غرفة يمكن لريح عاتية اقتلاعها... لكن مجرد وجودي بينهم جعل حتى من صمتي موضوعاً لتأويلاتهم، ولتغريب وتشريق محاولاتهم لانتزاعي من بئر رميت نفسي فيها دون أن أتّهم أحداً أو ذئباً رغم أنني كنت هارباً بها من كل أحد! إلى أن وجدت في ضيق غرفتي ملجأ لانزوائي... وهنا شعرت أنني أتقلص لأتمدد... أسحب جيوشي المهزومة من ساحة معركتي في ذاك العالم المكتظ بالآخرين، لأبسط سيطرة مشاعري على داخلي المكتظ بنفسي... أحاول بدأب طفل، أسرَته الألوان، أن أمحوهم كي أرسم نفسي بألوان زاهية على ورق ناصع!!

وهنا... للحظات فقط شعرت بالصمت... بهيبة الصمت ورهبته... ثم رحت أسمع صوته! صوتَ الصمت الذي لم أتصور أن يملكه!! كان متهادياً في بدايته... مترفقاً بمسمعي، وحنوناً على قلبي الذي نشده محباً من أقاصي

الجلَبة... لكنه أخذ يعلو! لا صوتاً وصراخاً فحسب، بل وألواناً راحت تتداخل في حمّى عينيّ اللتين باتتا كأذنيّ عصيتين على الانغلاق في وجه ذاك المد!! وراح يقسو ويتوحش... صارت جمجمتي جلداً لضارب طبله العملاق، حتى كادت تتمزق... فانفجرت صارخاً في وجهه... كنت أتصور أن صراخ الصمت لا يمكن أن يقاوَم إلا بصراخ الصوت، فاكتشفت أنه يتغذى بصراخ الصوت بعد خبوّه! وما كنت قادراً على الاحتفاظ بصراخي مستعراً لأكثر من لحظات، كنت بعدها أشعر بالتعب والاختناق... حتى شعرت بعد العديد من الصرخات أنني أُنهَك ثم أنهار ثم أغيب...

*

رأيت نفسي أغوص في ماء ثقيل يميل لونه إلى الصفرة أو الحمرة، ومن حولي كانت أشباح سوداء، لأناس شعرت بأنني أعرفهم، تغوص من حولي... بعضها كان يقترب مني ثم يمضي هارباً كأنني أنا الشبح المخيف لا هو! وبعضها كان يتعمد دفعي بكتف مرنة الصلابة لأجد أنني أغير اتجاه سقوطي نحو العمق الذي لم يبد لي منه إلا ظلمته! وبعضها راح يمسك بإحدى يديّ ليشدني في اتجاه غرق جديد لا أعرف وجهته!!

كان الماء، أو ما كنت أظن أنه ماء، فقد يكون دماً أو زيتاً أو...، كان دافئاً ومفعماً بالنعومة إلى حد انعدام الملمس... وارتطمتْ بذهولي موجةُ السؤال:

" أين أنا؟! وإلى أين أتجه؟! "

لكنني لم أتوقف عن الغوص لحظةً، إلى أن لمحتُ شيئاً... و...

*

وخزتني رنة الهاتف فصحوت... مددت يدي لأرفع السماعة ثم جذبتها نحوي فارغة وقد ملأني الشك...

" هل سمعت رنة الهاتف حقاً؟! أم أنني ما زلت أحلم؟! "

لكن الرنة تكررت مُلحّة على ترددي كي أجيب! وتكرر إيقاع شكي بصخب أكبر...

" ألم أقطع ذاك السلك المتصل بأي مصدر للرنين؟!"

لكن الرنة عادت وتكررت أكثر قسوة وأشد سخرية من يقيني الذي أضحى باهتاً! فمددت يدي ورفعت السماعة... ومع انتظاري لتحية معتادة داهمتني دورة الصمت الصاخب، لكنني في هذه المرة كنت أسمع مزيجاً من الصخب لأصوات خُيّل إلي أنني أعرفها جميعها، دون أن أتمكن مع محاولاتي المتكررة، من أن

أستخلص منها، عبر غربال تركيزي، أي صوت محدد! فقد كانت ممتزجة إلى حد التوحد، كأنها لم تكن أصواتاً بقدر ما كانت صوتاً واحداً مكثفاً... صوتاً متغلغلاً في داخلي!! وشعرت أن هذه السماعة التي كانت تلامس صدغي ببرودتها ما كانت إلا خدعة، فرميتها ليستمر الصوت طافحاً من كل أجزاء غرفتي وأشيائها! كان دافئاً قارساً... قريباً إلى حد الالتصاق، بعيداً إلى حد الغياب... صارخاً هامساً... راضخاً رافضاً... كان كتلة هيولية من المتناقضات المتوحدة... كتلةً فجّرت في داخلي دمعاً حارقاً فوجئت به ينبثق من عينيّ ومن جسدي كله ثم من جدران راحت تتداعى تحت وطأته، وكادت تسحقني تحت وطأتها!! فاندفعت أطلب النجاة عبر باب كنت قد قررت أن لا أخلط بفتحه بين عالمين ظننت أن في أحدهما خلاصي، ناسياً ما تكوّم خلف ذاك الباب من رمال منذرة بالانهيار على جراحي... حين...

الكرسي

كنت أشعر أن أشياء ما في حياتي تتغير بتغير نظرتي إلى الكرسي أو علاقتي به، لكنني لم أتوقع يوماً أن أقسم حياتي بسكين حادة إلى مراحل ترتبط بعلاقتها مع الكرسي، تماماً كما مزقَتِ التاريخَ أحداثٌ كالكتابة أو مولد المسيح أو هجرة الرسول أو الثورة الصناعية أو الحروب أو... أو... وها أنا أطرد عماي عن هذا التقسيم بعد بداية المرحلة الثالثة التي تلت مرحلتَي ما قبل الكرسي وما بعد الكرسي...

- 1 -

في المرحلة الأولى لم أهتمّ بالكرسي أو برِجْل الكرسي، فالكرسي هو مجرد كرسي! وسيلةٌ اخترعها البشر للجلوس... للحصول على المزيد من الراحة بما

يتناسب مع إمكانيات المفاصل، أو لتجنيب مؤخراتهم برودة نتوءات الصخور وقسوتها؛ لهذا كان عادياً بالنسبة لي أن أجلس على أي كرسي في البيت أو أي مكان مهما اختلف شكله أو لونه أو ارتفاعه، وحيثما كان موضعه، قرب الباب أو في صدر الغرفة؛ بل وكنت أستخدم الكرسي أيضاً كوسيلة لتنفيذ بعض شقاواتي الطفولية، فأقف فوقه للوصول إلى بعض الأغراض في البيت لاكتشافها، أو – كما كانت تقول أمي – لتخريبها؛ ومرةً في المدرسة وضعتُ مع بعض زملائي كراتٍ زجاجيةً تحت أرجل كرسي المعلمة الخشبي في حُفَر أحدثناها خصيصاً لهذه الكرات... يومها ضحكنا كثيراً لتزحلق الكرسي تحت المعلمة ثم بكينا كثيراً لضرب مبرح ناله كل التلاميذ لأن أحداً منهم لم يُشر إلى الفاعلين! ومرة أحضرتُ لأحد ضيوفنا السمجين كرسياً مكسور الرجل إلى الشرفة، فكاد رأسه ينكسر عندما ارتطم بالجدار مع تهاوي الكرسي تحته... فقط في مرة واحدة خلال هذه المرحلة الطويلة شعرت نحو كرسي بالحب، يوم لمحتُ تلك الجميلةَ نابتةً كالوردة فوقه وباعثة كل ذاك العطر... يومها راقبتُ الفتاة طويلاً ثم راقبت الكرسي بعد انصرافها طويلاً، وتعمدت اختراع حجة تسمح لي بالجلوس على الكرسي ذاته للحظات شعرت خلالها أن

ذراعي تلك الفتاة يحضنان تلهفي بنعومة تضاهي النسيم... لكنها على كل حال كانت حادثة عارضة، ثبتت كالمسمار في ذاكرتي وكانت مؤلمة لفترة ثم التأم مكانها فغاب وقعها...

- 2 -

أما المرحلة الثانية فلم تنبثق كالفطر فجأة، بل أخذ بدؤها سيرورة استمرت عاماً على ما أذكر، حتى أخذت طريقها في داخلي...

فتيلُ بدايةِ تلك المرحلة أشعله طموحي الذي دفعني لإكمال دراسة كنت قد هجرتها منذ أعوام بسبب عملي، وهكذا توجب عليّ السفر يومياً من مدينتي إلى الجامعة وبالعكس، وكل هذا طبعاً بعد انتهاء عملي، فكنت أستقل الحافلة يومياً لمدة ست ساعات ذهاباً وإياباً، وهنا ومن خلال التعب الذي لاقيته بدأت بداية المرحلة...

لعدة أيام في بداية نوَساني على الطريق الطويل، عانيت مشاكل عديدة مع الكراسي في الحافلات المسكينة التي كنت أستقلها، إذ لم يكن بإمكاني طبعاً أن أستقل الحافلات الحديثة المكيّفة ذات

الكراسي الوثيرة لغلاء أجورها، فلم أجد سوى الحافلات التي أكلت عجلاتُها إسفلت الطريق لعشرات السنوات، والتي راحت تئن كالمحتضر تحت ثقل راكبيها وتتكسر أجزاء منها وتحتج نافثة الدخان الدال على تعكر صحتها و... و...، وكان يتوجب عليّ أن أتحمل كل هذا... إلا أن ما اكتشفته بعد أيام من التجربة والنجاح والإخفاق في اقتناص كرسي مريح في الحافلة قادني إلى استنتاج رائع:

" ليست الكراسي كلها سواء، حتى في الحافلة نفسها! "

لهذا وضعت قائمة من الشروط التي يجب أن تتوافر -كلها أو معظمها – في الكرسي كي يكون مؤهَّلاً لجلوسي عليه خلال سفرتي الطويلة اليومية، ورحت أنتقي الكرسي المناسب وأتطلع إلى الراكبين من حولي وإلى أزماتهم مع الكراسي التي تمردت على ما سنَنتُ... فهذا المسكين ظهرُ كرسيه مكسور ولا يستطيع الاستناد عليه، لهذا أمضى سفرته منحنياً حتى انكسر ظهره، وذاك ظهرُ الكرسي الذي أمامه مكسور فهو لا يستطيع إسناد ركبتيه عليه كي ينام بثبات، فراح يهوي مع كل إغفاءة قصيرة له حتى يصطدم رأسه بالحديد أمامه، وهذا كرسيه ضيق، وهذا يقتله برداً تسرب الهواء عبر

الـزجاج المكسور المجـاور لـه، وهـذا تحـرقه الـشمس ولا ستائر تـردها عنه، وهذا يجلس فوق تحدب العجلة، وهذا تحت الدلـف وهـذا... وهـذا... إضـافة إلى المعانـاة مـع صحبة الطـريق، فهذا يجلس بجانبه شـخص ضـخم يـضيّق عليه الكرسـي حتى يخنقه، وهـذا يجلس بجانب مدخن شره، وهـذا تمنعه امـرأة ثـرثارة مـن الـنوم، وهذا يستند الشخص الـذي بجانبه عليه لينام، وهـذا... وهـذا... ومرت الأيام وأنا غـارق في تأمـل الكراسـي وقـدراتها الخارقـة، ومـع نهايـة هـذه الـبداية كـنت قـد اكتـسبت مـن الجامعـة شـهادة دراسية جديدة، ومن الحافلة أسلوباً جديداً في التعاطي مع الكرسي...

في هـذه المرحلة صـار الـكرسـيُّ العـصا السحريّةَ التي يمكـن أن تحـوّلك مـن كـائن إلى كـائن... صـار "كرسـيّ الـريح" الـذي يمكـن أن يحلّق بـك حيث لا يحلـم الآخـرون مجـرد حلـم أن يحلّقـوا... الكرسـي أعظم اختراعات البشر وأكثرها خطـورة، بـل... الكرسـي هـو الاختـراع الوحيد الـذي يميـز البـشر مـن غيرهـم مـن المخلـوقات... اللغـة؟! إشـارات الحيوانات وبعض أصـواتها وروائحهـا وحـركاتها لغـة... الطـيران؟! كـل الطـيور سـبقت الإنـسان إلى مجـده هـذا... الكهـرباء والإضـاءة؟! إن كـان يفخـر ببـزوغها مـن رأسـه فـإن مؤخـرات كـائنات كـثيرة سـبقته إلى إبداعها !

وغيرها وغيرها... وهكذا صار يمكنني أن أقلد الفلاسفة في ابتكار تعريف جديد للإنسان: فالإنسان هو حيوان لديه كرسي! قد يستطيع حيوان أن يجلس فوق كرسي مثل قطتنا المدللة، لكنه سيجلس عليه كما كنت أنا أجلس في مرحلتي الأولى دون أن يدرك الأبعاد الهائلة لهذا المخترَع الصغير...

بكل هذا بدأتُ رحلتي مع الكرسي خارج الحافلة... ففي عملي صرت أشعر أن الكرسي الذي لازمْتُه سنوات عديدة صار ضيقاً وصغيراً على شهادتي العالية الجديدة، فدفعني مَن سكبت أمامهم همي لعرض مشكلتي أمام عدد من الكراسي التي تؤهل الجالسين عليها لإصلاح وضعي، ففعلت...

شعرت بالمهانة وأنا أجترّ كلمات الاحترام والتعظيم أمام العديدين، لكنني اعتبرت ما أصبو إليه حقاً لي، وأنني لن أصل إليه بانتظاري لمن يقدّر إمكانياتي، ونجحت... حصلت على كرسي أوسع وأكبر، ففرحت، ووزعت قطع الحلوى على زملائي ومعارفي، ورحت أستعرض عضلاتي، فدعوتهم كي يقصدوني إذا احتاجوا مساعدة متناسبة مع حجم كرسيي، وفعل العديدون، فوفيت بوعدي، لكنني صُدِمتُ أمام إخفاقي في مساعدة

غيرهم، واكتشفت أن حجم هذا الكرسي الذي نلته لا يعادل صرصوراً أمام فيل ما كنت آمل؛ لذلك قررت البدء برحلة سعي جديدة نحو كرسي جديد... كرسي يتناسب مع شروط جديدة اكتشفتها في رحلتي القصيرة مع عالمي الجديد... فالكرسي الذي أصبو إليه يجب أن يكون مرتفعاً كفاية كي يمكّنني من رؤية ما لا يراه الآخرون، ومشرفاً كفاية كي يمكّنني من فعل ما لا يستطيع فعله الآخرون، ويجب أن لا يتقلص ويتمدد تبعاً لحالة الطقس المحيط، قارساً كان أم قاتل الحرارة... وأن يكون مجهزاً بلاصق شديد الفعالية...

وعدوني بتنفيذ رغبتي وطلبوا أن أعود لاحقاً وعندما عدت أخبروني أن عائقاً يقف بيني وبين الكرسي الذي أنشد عليّ تجاوزه أولاً! الآن صار الكرسي يفرض عليّ شروطه...

ـ علمنا أنك كنت تقف فوق الكرسي للوصول إلى ما يعلوك كي تخرّبه...

ـ بل كي أستكشفه يا سيدي...

وتذكرتُ أمي التي وصمتني بهذا المصطلح الظالم سامحها الله...

ـ لا فرق عندنا! الاستكشاف والتخريب سيان، لهذا نريد أن نتأكد أنك لن تعود إلى هذا لاحقاً...

ـ أعدكم يا سيدي...

ـ وعلمنا أنك كنت تستخدم الكرات الزجاجية لدحرجة الكراسي تحت الجالسين فوقها...

تبسمت ببلاهة:

ـ تلك كانت حماقة طفولية يا سيدي...

ـ الطفولة هي المرحلة التي تقرر سلوكك في الحياة كلها...

وبسخرية العارف أضاف:

ـ ألم تقرأ فَرَويد؟!

ولم أجرؤ على أن أصحّح الاسم للسيد:

"تقصد فرويد يا سيدي!" فانصعت للسؤال:

ـ نعم يا سيدي... أنتم على حق، وأعدكم أن لا أعود إلى هذا...

ـ أضف إلى استخدامك للكراسي المكسورة للإيقاع بمن لا يروقون لك...

ـ لن أكرر هذا يا سيدي... أعدكم...

ـ الوعود لا تكفي، سنخضعك لمرحلة اختبار...

وبدأ الاختبار... فصرت أداري الكراسي كما أداري عيناً متألمة... ألامسها برفق، وأبحث عن أي خلل فيها لإصلاحه... أمتدحها في كل مجلس وأعرض مناقبها وأدافع عن أخطائها، خصوصاً إذا أحسست أن في المجلس شخصاً يَعُدُّ عليّ كلماتي ويعطيها العلامات اللازمة لنجاحي في الاختبار... صرتُ أبا نواس الكراسي... وهكذا مضت الأيام حتى تفشى في نفسي وسواس الكرسي، فصرت أهذي به في كل مكان حتى في بيتي... أعارض أن ينتقل كرسي من مكان إلى مكان، فانتقال الكرسي بحاجة إلى دراسة كي لا يؤثر على غيره من الكراسي... أمنع الأطفال من الركض في الغرف فقد يصطدم أحدهم بكرسي ويقلبه، وعندها لن أفقد فقط الكرسي الذي أطمح إليه، بل الكرسي الذي أجلس عليه الآن... أرفض استخدام الكرسي وسيلة للوصول إلى الأغراض العالية فوق الرفوف أو في السقيفة، فهذا تخريب متعمد... وهكذا عانيت كثيراً، وعانى مَن حولي كثيراً إلى أن تلقيت النبأ السعيد:

ـ حصلتَ على الكرسي الذي تريد...

كدت أطير فرحاً وحدثتني نفسي بأن أقبّل السيد الذي زفّ إلي البشرى، ولكنني خشيت الاقتراب منه وهو

يقبع فوق ذاك الكرسي المخيف... وبدأتْ حياتي مع الكرسي بنكهة جديدة وشعور عظيم بالعظمة... يكفي أن تشير كي تلبَّى رغبتك... يكفي أن تعطس كي يهرع المئات للاطمئنان على صحتك، وأن تضحك كي يهنئوك بسعادتك، وأن... كي... وأن... كي... صرت أشعر بأنني أستطيع أن أقول كن، فيكون... كنت واثقاً من أنني أستحق هذا الكرسي بعد كل ما عانيته ومقتنعاً بأن لا بد لي من التمسك به بإصرار الرغبة في الحياة... تمنيت لو أستطيع حمله معي إلى المنزل كي أمنع أحداً من سرقته مني... وحاولت البقاء بقربه أطول وقت ممكن حتى دبت الخلافات بيني وبين زوجتي التي رأت في هذا الكرسي الذي تمنّتْه لي ضرّةً بغيضة لها... وتحاشيت كل ما يتعلق بالكراسي الأخرى، من حولي ومن فوقي... تجاهلت كل ما رأيت من شؤونها وقررت أن أحافظ على نفسي كما أنا، وأعلنت استعدادي للعمل في سبيل مساعدة الجميع... وساعدت الكثيرين متحدياً الظروف القاهرة، إلى أن دُعيت للتنبيه...

- ساعد نفسك أولاً...

بدت اللهجة مهدِّدة ثم لانت قليلاً:

- كي تبقى في الأعلى أبقِ من عداك في الأسفل...

ـ كنت أظن يا سيدي أن ما أفعله ليس ذا بال...

- لا تدفع أحداً للارتفاع دون أن يرفعك، وإلا فسيزاحمك على رفعتك...

- وماذا أفعل يا سيدي ؟!!

- دس عليه كي ترتفع وحدك...

حقاً كان طموحي كبيراً، لكنني لم أتصور أنني قد أفعل هذا ذات يوم! كيف أدوس ومن أدوس؟! كانت الصدمة شديدة... وتخيلت نفسي أنظر في عينين لم أتبين صاحبهما وقد دسته دون أن أعطيه فرصة حتى للصراخ... بدتا حاقدتين متوعدتين بانتقام قريب... ألأجل هذا كنت أسعى؟! وتفجر الصداع في رأسي والتآكل في معدتي الواهنة أصلاً، فاعتكفت في منزلي أياماً، شعرت خلالها أن أحلامي تحطمت حين أخذت طريقاً لم يكن طريقي، ووجدت نفسي مجبراً على اختيار أحد اثنين... أنا أو الكرسي!.. صار الكرسي ماردا متمرداً منفلتاً من قمقمه... قنبلة موقوتة مزروعة في القلب... وبعد كل الألم الذي عشته والدوامات والمتاهات التي دخلتها زهدت بالكرسي وقررت تركه...

- هل تعتقد أن الانسحاب ممكن بهذه البساطة بعد كل ما اطّلعت عليه؟!

- أعدكم يا سيدي أن يظل كل ما أعرفه سراً، لكنني أرجوك...

وبلهجة لا مبالية لم أتوقع ما يمكن أن تحمل خلفها أشاح بيده قائلاً:

- اذهب... اذهب...

فرِحْتُ... سأعود إلى نفسي... سأعود إلى كرسي أسند فيه قدميّ على الأرض فقط... وانطلقت نحو ما كنته... لكن...

- 3 -

بدأت مرحلتي الثالثة مع كرسي مختلف... ففي تلك الليلة غرقت في محيط من النوم، ولمحت الأحلام حولي تهز زعانفها واعدة ببدء حياة جديدة منذ الغد... كان المحيط عميقاً عميقاً لدرجة أنني... لدرجة أنني...

استيقظتُ صباحاً وأنا أشعر بالآلام تغزو جسدي بوحشية ناهشة... حاولتُ النهوض إلا أن المفاجأة صعقتني حين انفجر ألمي ولمحتُ دمائي تغسل الفراش الأبيض بثمن التمرد الذي أبديته... كنت منذ ولادتي ألقي فراشي فوق الأرض ثم ألقي بنفسي فوقه لأنام، لكن اعتلائي

للكرسي تلو الكرسي، فرض عليّ الاعتلاء في أماكن وقوفي وجلوسي وفي أماكن نومي أيضاً، لهذا اقتنيت سريراً، وكنت أفكر بوضع سرير آخر فوقه كي أرتفع أكثر وأكثر... وفي ذاك الصباح وجدت نفسي بلا سرير، ملقى على فراش دموي على الأرض، على الارتفاع ذاته الذي عشته قبل الكرسي، بل نبهتني آلامي الضاجة إلى أنني عدت أكثر انخفاضاً، أكثر بكثير...

عانيتُ المعالجة الطبية فترة، وعانيت مرارة التحقيق في حادث القضم الذي تعرضت له، ولم يَقُد التحقيق إلا إلى قرش متوحش مجهول... وعُدْتُ إلى منزلي على كرسي لم تذكرني عجلاته في دورانها إلا بحالاتي التي عبرتُها طوال السنوات الماضية... وهكذا التصقت بكرسي صار امتداداً لجسدي، بل صار جسدي... صار أنا ... لتنطلق المرحلة الثالثة من علاقتي بالكرسي، مرحلة الالتصاق الذي جاء ثمناً لرفضي بيع ما كان ثمنه اعتلائي لذاك الكرسي... ذاك الكرسي الذي كان يتوجب عليّ باعتلائه دوس الكثيرين بقدمين لم أعد أمتلكهما...

المؤلف في سطور:

هيسم جادو أبو سعيد

من مواليد عام 1974م.

حاصل على الماجستير في التربية ويعمل في التدريس.

حاصل على نحو عشرين جائزة أدبية، منها:

جائزة المزرعة للإبداع الأدبي، جائزة البتاني، جائزة الجولان للإبداع الأدبي، جائزة وزارة الثقافة لأدباء الأطفال، جائزة منتدى القصة القصيرة، في مجالات القصة والمسرحية والمجموعة القصصية والرواية وأدب الأطفال.

- وهو عضو اتحاد الكتاب العرب جمعية الرواية

صدر له:

- "تسعاً وتسعين أغنية" رواية، دار البلد، 2008م.
- "خيوط الهواء" رواية، وزارة الثقافة، 2008م.
- "نهايات الحواتم" رواية، اتحاد الكتاب العرب 2010م.

الفهرس

الإهداء 5

ألعاب... 7
أحجار لا تشبه أسماءها... 9
أريد النجوم 19
أسطورة 34
روميو و روليت 44
ليلة حب 52
المخاض 66

عصافير... 79
الأقفاص 81
العصفورة 94
حارس العصافير 101

حديقة الصبّار 115
الأصابع الطويلة 117
الشجرة التي بكت 134
الصوت 143
الكرسي 149